شمل العائلة
محمود الريماوى

اهداءات ٢٠٠٤

المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة

قصص

شمل العائلة

محمود الريماوى



٢٠٠٠

القصص

صفحة

يوسف

حين اندفع خارجاً قبل الثامنة بقليل ، كان يجهد فى إخفاء ألمه وهو يترقّب سيارة تحمله مع ركّاب آخرين إلى وسط المدينة . في الانتظار ، قَصَدَ دكاناً قريباً لشراء جريدة ، ووقَفَ على الرصيف يُنقِّل نظره بين العناوين ورتل السيارات التى لا تتوقف ، حتى توقفت إحداها واندسّ فيها . هناك ، وعوضَ أن يتجه لشركة طلبت موظفاً للتعيين ، فقد انعطف إلى مقهى ، وأخذ ينقّب بين صفحات الجريدة عن طلبات جديدة لوظائف شاغرة . لقد اعتاد على هذا . « تلك وظيفتى » قال ساخراً وهو يحيط الإعلانات بدوائر سوداء . « لا بأس بها ، لكنى سئمتها» . وكما فى كل يوم هاله كم تحتوى الجريدة على صفحات زاخرة بأخبار وموضوعات وإعلانات . « لست ملزماً بقراءتها جميعها ، ولا نصفها ولا . . . » بهذا حدّث نفسه التى كانت تضيق بكل شيء خارجها . وحين طالع وجوه الزبائن القليلين فى هذا الوقت المبكّر ، لم يفاجأ بالبعض منهم ، من متقدّمى السن ، ممن كانوا يأتون على قراءة الجريدة جميعها : متقاعدون يفتعلون وظيفة جديدة لهم . أما هو فإن النعاس يراوده ، رغم نومه ليلة البارحة لساعات طويلة ، إذ أن شعوراً بالدوار يساوره مع تتالى تناول كؤوس الشاى ، فيما قرّاء الجرائد ينكبّون على القراءة بعيون مفتوحة خلف النظارات ، وبأذهان يقظة متربّصة . سأل النادل أن يخفض صوت الراديو ، إلاّ أن هذا لم يجبه ، واكتفى بارسال ابتسامة ماثلة لا معنى لها . إنه لا ينزعج من الصوت العالى ، بل يبدو أكثر نشاطاً كلما ارتفع الصوت . ذلك جزء من وظيفته . أن يطرق الصوت العالى رأسه ويتقبّل ذلك برضا وانسجام . أما هو فما زال يستشعر تردداً فى أن يقصد الشركة طالبة الوظيفة . « اللعنة ، إنها مسألة كرامة » . إنه يستذكر نظرات الإشفاق

والتأفف التى تصادفه هناك . « هل أنت راجع ؟ » سأله النادل فيما كان يهم بالخروج ، فأجابه بالإيجاب .

وسط المدينة شديد الإزدحام كالعادة ، وعلى نحو ما ، كان ذلك يُسرّيه ويؤنسه . على أنه يحار وهو يخوض فى الحشد الهائل من الناس ، فى تمييز الموظفين عن غيرهم ممن يبحثون مثله عن وظيفة ، وكم أثاره مرأى أناس متباطئين متسكّعين ، ولم يلبث أن اكتشف أنهم موظفون . فيما يبدو عاطلون مثله عن العمل ، منهمكين فى مشى نشط متسارع يزاحمون المارة ويدفعونهم عن طريقهم ، إنه فى طريقه إلى الشركة لينجز تقديم الطلب ، فإن لم يفعل فإن يومه لن يمر بخير ، فبأى وجه سيقابلهم فى البيت ، وبماذا سيبرر الأمر لنفسه قبل الخلود إلى النوم .« يوسف .. يوسف » تناهى إلى مسامعه الصوت . أبطأ من مشيه وتلفت حواليه ، فلم يتكرر النداء . ليست هى المرة الأولى ، التى يسمع فيها هذه النداءات ، ليكتشف أن لا أحد يناديه . تشابه أسماء : ضريبة الإسم الشائع . .أنا يوسف وهو يوسف وهم كلهم يوسف ، تجمعنا الأسماء ويفرّقنا كل شىء . فى الحارة ، فى المدرسة ، فى الشوارع ، فى الجامعة ، يحفُّ به دائماً أكثر من يوسف يقاسمونه اسمه ، ويقطعون عليه سكينته ، إذ يختلط الأمر على البعض فلا يميزون بين يوسف هذا وذاك ، وسواهما . ثم يتأسفون له ، محمِّلينه تبعه تشابه الأسماء . ولا يشك أنه إن عثر على وظيفة ، فلسوف يصادف حوله أكثر من يوسف يبادلونه عبارة : عاشت الأسامى (الأسماء) . وعلى وجه اليقين ، فإنه يمر الآن عبر الشوارع المكتظة ، بعشرات العابرين ممن يحملون اسمه ، فلماذا يستغرب أن يرتفع نداء يحمل اسمه دون أن يكون هو المقصود . ثم خطر له ان المرء بعد أن يتوظّف ينسى اسمه ، أو لا يقم له وزناً . لم يكن متأكداً من ذلك ، لكنه على ثقة أن الموظفين يفكّرون بطريقة أخرى ، غير التى يفكّر بها الآن .

ولن يستطيع التثبت من ذلك إلا حين يتوظف لكن ما العمل إذا لم

تكن هناك وظيفة ؟ سيكون مضطراً إلى مواصلة التفكير بالطريقة نفسها ، وإن يشكك فى كل شىء إنه ابن لموظف أمضى خمسة وثلاثين عاماً فى الوظيفة وما زال يحن إليها ، ويتمنى لابنه أن يستأنف ما انقطع عنه .

وهو يمخر الأرصفة التى تموج بالسابلة ، كان يفكر بطريقة أسرع من كتابة هذه الكلمات وقراءتها ، ويتفادى الاحتكاك بأحد خصوصا النساء ، ونوى أن يقصد الشركة ماشياً ، فليست به حاجة للإسراع فى مواجهة موقف الإشفاق والتأفف . سأصل منهكا لابد . ولا مشكلة فى ذلك ما دمت لن أباشر أى وظيفة على الفور . سيسعى فقط فى تقديم طلب ، فإما يمنحونه طلباً يحتفظ به كى يملأه ويعيده بعدئذ ، أو ينبئونه بأن تقديم الطلبات توقف ، سيمشى ربما لساعة أخرى والطقس ليس حاراً فى ساعات قبل الظهيرة فى نهاية آب . إنه جاف ومغبر فقط ، والمزيد من المشى ، وإن أصابه بالعطش فإنه يبدد بقايا الدوار فى رأسه . ليمش كما يفعل المشاة الذين لا يجدون حرجا فى الاسترسال فى المشى ، ولطالما سمع أشخاصا متنعمين ينعتون المشى بأنه نعمة وأنهم يغبطون المشاة من قلوبهم فما يمنعهم هم أن يغفلوا بهذه النعمة ؟

سيظل يفكر هكذا حتى يصل وقبل أن ينتابه هناك قنوط يخالطه ندم ، وهو يغادر أبواب الشركة ذلك أنهم ينشرون إعلانات فى الصحف ، وما أن يتقدم أحد إليهم ، حتى ينقبضوا ويتبرموا مما فعلوا « إعلان . . . هل نشرنا إعلانا ، أنت متأكد ؟ أنا لست متأكدة دعنى أتأكد ، ألو ، هل نشرنا إعلان توظيف ؟ متى ، اليوم ؟ أمس إذن فى أى جريدة ، أجل ، إنها مشكلة . إنه المدير سأسال المدير . مئة واحد سألنى ، هل عندنا مئة وظيفة ؟ شىء محير حقا ، عليهم أن لاينشروا إعلانات ، يجب أن يفكروا بوسيلة أخرى . لا أنا مبسوطة ، الحمد لله لكننى لا أستطيع الإجابة على استفساراتهم . هذا الإعلان بالذات لم أقرأه . لم أجد المدير . إنه يكون مشغولا فى مثل هذا الوقت أبدا ، ، لا ، شكراً » .

يسمع المكالمة وهو حائر ، كل هذه البلبلة بسببه ؟ كما سمعت ، تقول السكرتيرة : كما سمعت » لم أسـمع كل شيء » . يهز رأسه شاكراً . لطالما واجه مثل هذا الموقف وأسوأ منه .

- أريد تقديم طلب .
- لا يوجد طلبات .
- هل أنتهى تقديم الطلبات .
- لا ، لم ينته .
- إذن . . .
- إذن ماذا ؟
- هل أقدم طلبا أم لا ؟
- بل قدم طلبا إن شئت .
- أعطنى طلبا .
- قلت لك : لا يوجد طلبات .
- ما معنى ذلك ؟
- معناه أنه لا يوجد طلبات .
- كيف أقدم طلباً إذن ؟
- عندما تحضر تأخذ طلباً وتملأه .
- ها إنى حضرت .
- أعرف أنك تقف بطولك أمامى ، لكن لا يوجد طلبات .
- هل أستطيع أن أسأل لماذا ؟
- لأنه لا يوجد . لأن نماذج الطلبات فى المطبعـة ولم يحضروها بعد

- آه . . فهمت .

- شكرا لأنك فهمت .

مع أنه لم يفهم شيئاً . إذ كيف ، بالله ، ينشرون إعلاناً فى الوقت الذى لا تتوفر لديهم أوراق طلبات ؟ ليس بوسعه أن يسأل .لئن فعل فلسوف يعتبرون ذلك استفزازاً وتدخلاً فى شؤونهم . إرسال الطلبات بالبريد أفضل ألف مرة . لا أحد يحرج أحداً . طريقة حضارية . يفعلون ذلك فى أمريكا هناك ، كما قيل له ، كل شيء بالبريد . لكنه لا يعرف إن كانوا لا يجيبون على الطلبات ، كما يحدث معه هنا ، لا يجيبون مع أن العناوين صحيحة وعلى الرغم أن يثبت لهم عنوانه . لا يستطيع إرغامهم على الإجابة . أحرارا ، فكما هو حر يرسل أو لا يرسل طلباً كذلك هم أحرار . أن يجيبوا على الطلب أو لا يجيبون . وكذلك المدراء وأصحاب النفوذ الذين كان يقصدهم من طرف أبيه . هؤلاء أحرار إن استقبلوه أم لا ، وكان يعود فى أحسن الأحوال محملا بالسلامات إلى أبيه ، بعد أن يكونوا قد اعتذروا لأنه تأخر « لو أنك جئت قبل أيام ، قبل يومين فقط » . . ، أو لأن الجهة التى يقصدها تعتزم الاستغناء عن موظفين قدامى ،وليس تعيين موظفين جدد ، وفى حالات قليلة كانوا يستلمون طلبه مع وعد بأن يتصلوا به ، لكنهم لا يفعلون ذلك أبداً .

بعدئذ أخذ يحمل بطاقات توصية به من معارف لأبيه ، حيث يمطره من يستقبله ، بأسئلة عن الشخص وعن صاحب البطاقة الذى لا يعرفه ، ولكن السائل يقصد إرباكه . وبعضهم لا يتردد فى طلب طلبات ، عليه أن ينقلها هو إلى صاحب البطاقة التوصية ، فإما أن ينجزها صاحب البطاقة ، أو يفعل ذلك أشخاص آخرون من معارفه بعد توسطه معهم .

هكذا اكتشف أنهم يحتاجونه أشد الحاجة وينتظرونه لقضاء حاجاتهم ،

وينسـون تماما الحـاجـة التى طرق أبوابهم من أجلهـا . ويتذكـر ذلك وسواه ، فيـما ينهب الطريق إلى الشركة طالبة الوظيـفة ، ولا يعرف على أى هيـئة سـيصل . هل سـيبـدو منهـكاً مكدودا ، أم مشـعث الشـعـر ، أم زائغ النظرات ، أم مـخـطوف الأنفـاس ، أم أنهم لن يلحظوا شيـئاً من ذلك ، أنه مهما تـكن النتيجة ، سيـقفل من هناك عائداً إلى المقهـى فى سيارة أجرة لينال قسطاً مـن الراحة ، وحتى لو صادف أحد أصدقـائه الذى يلح عليه أن يتدرب فى ناد ، ويكف عن البحث عن وظيفة . وكأن الوظيفة تطعم خبزاً . وماذا أفعل بالتدريب ؟ ليـاقة ، بدنيـة يا أخـى . وماذا أفعـل باللـياقة البـدنيـة ؟ قل ماذا سيفعلن هنا بها ؟ من هن يا محترم ؟ يسخر منه صديقه : ستجد أنك أصبـحت موضع انتـباه إحـداهن ، وهل هذه وظيفـة ؟ لا ، ليست وظيفة ستؤمن لك إحداهن وظيفة . . .

يصل إلى الشركة المقصودة ، « شركـة عبر البحار » . يخطر بباله إن موقعـها بعيد عن بيتـه ، ثم يلاحظ أن لبعض المواقع البعيـدة ميزات تجعلـها أفضل من الـقريبة . لماذا ؟ لن يـتجشم الآن عنـاء الإجابة . سوف يصـلح من هندامه ويلتـقط أنفاسـه ، قبـل أن يتقـدم إلى ركن الاستقـبال : أريد تقديم طلب توظيف . أصعـد إلى الطابق الثانى : صعد . سأل أحد السعاة أين يذهب ، فـأجابه . قصد الغرفة الأخيرة التى إلى اليمين : ها هى ، هنا أدخل . يا للحظ الطيب . . من أرى ؟ للمـرة الأولى التـى يـصادف أحـداً يعرفـه ، فى مثل هذه الأمـاكن المهمة .

- من . . يوسف ، غير معقول .

- أنت هالة ، مرحبا .

- أين أنت يا رجل . منذ كم سنة ؟

- خمسة أربعة بل خمسة .
- لم تتغير ، عرفتك من مشيتك .
- وأنت أيضا ، تغيرت قليلا فقط .
- إلى الأحسن ؟
- طبعاً ازددت جمالاً.
- أنت الوحيد الذى لم أصادفه من مجموعتنا ، كنت أسأل عنك ، ماذا نضيّفك ؟
- شاى .
- أنا سأشرب قهوة ، تعودت على القهوة منذ تعينت ، وأنت ما أخبارك ، أما زلت مولعاً بالموسيقى ؟
- آه الموسيقى ، طبعا.
- أكيد تقضى أوقاتك فى سماع الموسيقى ، أعرفك : رومانسى .
- لا ليس إلى هذه الدرجة .
- نضجت إذن ، الزمن يركض ، لا يرحم ، ما زلتم تسكنون فى تلك المنطقة .
- أين تريدننى أن أسكن .
- لا أقصد ، إنما البلد كبرت .
- لابد أنكم غيرتم سكنكم .
- من زمان ، من ثلاث سنوات ، لا ياربى ، من أربع سنوات إلا كم شهر ، إشرب شايك .
- سأشربه .
- سيجارة ؟

- لا ، شكرا . لا أدخن .

- أنا منذ بدأت أشرب قهوة ، تعودت على السيجارة . أم تراها عيب على البنت ؟

- عيب . . لماذا عيب ؟ كل الناس تدخن .

- أنا لا أدخن في الشارع ، تعرف كيف يفكر الناس .

- أعرف .

- ولم تتوقع إني أدخن .

- لا ، لم أتوقع .

- لماذا لم تتوقع أجب بصراحة .

- ليس لسبب معين لأنك ، ربما لإنك لم تكوني تدخنين .

- لا ، لم أكن ، صديقاتي كن يدخن ، أنت تعرف .

- أعرف ، كانت أياماً جميلة ذهبت .

- ذهبت تلك الأيام يا يوسف ، كنا نرى بعضنا أكثر مما نرى الأهل وكان واحدنا يفتقد الآخر ، إذا غاب عنه ليوم واحد ، أما الآن . .

- وكنا نضحك ، من القلب .

- هل تلاحظ ؟ لم نعد نضحك ، لكنني لاآخذ الحياة بجد مثلك ، في أول مناسبة أو فرصة فإني أضحك ولو على نفسي ، أما أنت فلا تفوت فرصة للتأمل والحزن . . أنني أمازحك فقط .

- أفهم . واعترف إني كنت أكثر مرحا .

- هل تشرب شيئاً آخر ، سأطلب أنا فنجان قهوة ثان .

- لا ، شكراً ، سأعطلك عن عملك .

- لا لن تعطلنى . أريد أن أسالك وتجيبنى بصراحة .

- اسألى .

- أنت تعرف السؤال .

- هل هى حزورة ، تريدنى أن أجيب على سؤال لم تسألينه ؟

- أنظر إلى وتعرف السؤال .

أسندت رأسها على كتفها وأخذت ترمقه بنظرات ثابتة . ارتبك وهو يتملى جمال عينيها المتسعتين . فى نظراتها جرأة لم يعرف أبداً متى تكون مقصودة ، جرأة وتأهب للفرح .. فرح يغشاه حزن عابر ، كانت براءتها تستهويه ، دون أن يستطيع مجاراتها فى الخفة ، لأنه لو فعل فإن المعانى بالنسبة إليه تختلط حينئذ .

- هل .. عرفت السؤال .

- من تقصدين .. صديقة بالذات ؟

- نعم ، أقصدها هى .

- أعرف إنها تزوجت . كانت مجرد صداقة قوية إذا شئت .

- قل ذلك لغيرى .

- إننى أبحث غن وظيفة .

- لا تغير الموضوع ، أعرف أنها كانت تحبك أيضا .

- وتعرفين أنها تزوجت .

- عرفت بعزمها على الزواج قبل سنة من زواجها . الزواج شىء والحب شىء إنك لم تسألنى .

- عمّ ؟

- عن أخبارى ، ألا تعنيك أخبارى ، إنى أفكر بالخطوبة ..

وبصـراحة مـترددة . على رغم أنه لا يعـيبـه شيء ، يوسف هل أستطيع رؤيتك مرة أخرى . أحب أن أتحدث إليك .

– وأنا أيضاً ، متى ؟

– متى . . مـتى ؟ أعطنى رقم تلفونك . لو كـان معى لأتصلت بك من قبل .

– هذا هو الرقم . سأنتظر مكالمتك ؟

خرج يوسف على غـير ما دخل . أية مـصادفة حلوة . . أية فـرصة طيبة ، أى وقت ممتع ، أى ذكريات وأية توقـعات . فى طريقه سيظل يحدق فى صورة وجهـها المسند إلى كفها . وجهـها المتورد . مضت سنوات طويلة بطيئة ، فارغة ، إنها لا تعرف كيف قضاها ، لم يكن هناك متسع مـن الوقت للحديث فى كل شىء . لقد ألزم نفسـه حقاً بنسـيان تـلك الصديقـة التى أتت على ذكـرها . أجل ، إنهـا أثارت أشجانه مـن هذه النـاحية . يكفى أنها استقبلته ، بترحاب ومودة قلبية . إنها لم تتغير . تشع البهجة حولـها ، حتى لو كانت المناسبة تعيسة . قالت أنهـا مترددة فى الخطوبة . ليكن ، ربما مـعها حق ، إنه سعـيد باستـعادة شـىء مـن دفء وألـفة الماضى . لن يعـود إلى المقهى ، أية بلاهة تلك . سيقـفل عائداً إلى البيت وسينتظر مكالمتـها . ربما تتصل اليوم ليس بالضـرورة اليوم . إنها أربع أو خمس سنوات . ممكن غداً أو حتى بعد يومين ما الداعى للاستعجال . هى وظروفها .

فى البـيت يسـألونه إن كـان تقـدم بطلب ، وإن كـان هناك أمل فى الوظيفة يطمئنهم . وقد أطمأنوا إذ بدا فى حال من الترقب واللهفة .

لكنها ، لسبب يجهله ، لم تتصل .

بـعد أن تجـاوز أسـبـوعاً فى الانـتظار قادته خطاه إلى شركـة « عبر البحار » سيقابلها ، وسيقـدم طلباً ، ويعاتبها . إنها ثمانية أيام ، إنها

فترة أطول مما توقع مـهما حدث كان ينبـغى أن تفى بوعدها ولا تدعه نهبا للقلق صعد إلى الطابق الثانى إلى الغـرفة الأخيرة التى على اليمين . سأل الموظفة الأخرى عـنها ، فأنبأته باقـتضاب أنها مجـازة منذ متى ؟ منذ أسبوع ومتى تنتهى إجازتها ؟ لا تعرف يحدث مثل ذلك لم لا يحدث . ربما فقدت الرقـم . ربما سافرت فجأة . ربما مـرضت . ربما مرضت أمها . حـدث نفسه بذلك وهو يجرجر خطاه خـارجا . لن يعود إلى البيت الآن سـيشعر بالاخـتناق هناك سيتـمشى ولا يهم إلى أين ، لا أفضـل من المشى لتصـريف التوتر . إنه مـجرد توتر فـما الغـرابة أن تخـرج زمـيلة قديمة فـى إجازة من عـملهـا ، كل الموظفين يأخـذون إجازات ، لو كان موظفاً لأخذ حـقه كاملاً فى الإجازات تذكر أنه لم يقدم طلباً بعد ، إنه لا يريد التفكيـر به الآن . سيفكر بها هى إنه يجد لذة خاصة فى التفكير فى أثناء المشى ، كـأن أفـكاره تمـشى معه وتسبقه ، فيـحاول أن يدركهـا ويلتقطهـا . . لكن أفكاراً أخرى تتـدفق وتخرج أمامه ، مثل كرات مـختلفة أحجامها وألوانها ويحـار أيها يلتقط وأيها يدعها تفلـت منه . ليس فـى ذلك اليـوم ، بل بعد قرابة أسابيع ثلاثة ، إذا برنين الهاتف يوقظه من نومه .

- يوسف . . أنا هالة وعدتك أن اتصل ، وها أنا أفعل .
- أهلا بك كنت مـتيـقناً أنك ستـتصلين لكنك تأخـرت . . ألم تتـأخرى قليلاً ؟
- معك حق تأخرت لكن ألن تبارك لى ؟
- ألف مبروك .
- وجدته أفضل كثير مما توقعت . . متى التقينا ؟
- زمان . . مضى شهر تقريبا .
- هل تصـدق أننا عـقـدنا خطوبتنـا فى اليـوم التـالى . أبداً . . ثانى يوم

على طول . أنت تعرف انشغالات الخطوبة .

- أعرف طبعاً .

- عُقبى لك .

- سأدعوك إلى حفل الزفاف ، وستحضر .. لن تتزوج بسرعة ، لم السرعة ؟

- . . .

- تركت الشركة قال لي أني اشتغلت أربع سنوات ، ومن حقي أن أستريح أربع سنوات على الأقل . والله أني تفاءلت بك كنت وجه خير عليّ .

- العفو . تستحقين كل خير .

بعد انتهاء المكالمة تناهت على التو من أعماقه ، أصوات قرع طبول تخالطها حشرجات استغاثة . وبالكاد سمع أمه التي تقدمت منه تداعبه وتسأله : لم تقل لنا ألم يحصل شيء في الطلب الذي قدمته قبل شهر ؟

الساحر يوالى ضرباته

(1)

لم أكن رياضيا البتة . كنت مؤمنا تمام الإيمان بالروح الرياضية حين أستذكر شغفى القديم بكرة القدم ، اطمئن إلى أن طفولتى كانت طبيعية فمن لم يقع باكرا فى هوى تلك اللعبة ولم تأسره وعودها على أنه كان يروقنى فيها الجانب الرتيب.أكثر من سواها أجل حتى فى تلك السن التى تقارب العشرة : أن تتوقف عن الزحف والدوران والركض فى الأزقة وعلى المرتفعات وعبر الأسيجة ، وبين البيوت والشجر . أن لا توغل بعيدا ، أن تلزم المساحة المخصصة للحركة ، أن تتفادى ارتكاب الأخطاء . أن تتخير هدفا واحدا قريبا تتجه إليه ، جيئة وذهابا مباشرة ومداورة تطارد كرة نطاطة ، إذ ليس بوسعك أن تجذبها إليك وأن تحتفظ بها كرة مرهفة شديدة النفور لدى أقل احتكاك ، أن تطاردها وتروضها لا لشىء ، إلا كى تقذف بها إلى الهدف تتخلص منها وتقذف بها بعيدا بما يتطلبه ذلك من جهد ودربة ، كيما تألفها . . تلك الكرة النطاطة غير الأليفة ، الفارغة التى لا تمتلىء بغير الهواء ، ذلك هو البعد الرتيب الذى استهوانى ، الذى يوقف الشرود عند حده ويدفع الصبى إلى حال من انتظام وانضباط ، فيه رغم ذلك ما فيه من ألوان التفاجؤ والتحدى والتسرية خلافا لرتابة المدرسة التى تثير الملل وكأنى بى ما زلت ألهث وأنا أراوغ الكرة وأطاردها مطاردة روح شريرة ، وأتاهب للتعامل مع لاعب يكبرنى وسوف يأخذ الكرة لا محالة من بين قدمى ، إذ كان كل فريق يستعين بلاعب أكبر سنا لترجيح الكفة ، وفى الغالب يسمى الفريق على اسمه . ومع هذا لايكتفى اللاعب الأكبر بازدراء لاعبى الفريق الأصغر سنا منه ، بل يستهين بشركائه أعضاء فريقه . لم يكن هذا

اللاعب سواء فى فريقنا أو فريقهم ليعبأ بفوز أو خسارة . إنه مجرد يضيع وقته مع لاعبين أغرار ، ويتحكم بالتواطؤ مع اللاعب الآخر كبير السن فى الفريق المقابل فى مسار اللعبة ، كأن يطرد هذا أو ذاك ، أو يتهكم بأقذع التعليقات على من يشاء . . كنا نستعين بهم مرغمين ، إذ أنهم وبصراحة كانوا يفرضون أنفسهم علينا وكما لو أن أحدهم أستاذ فى المدرسة ، كنا نعزى أنفسنا بأننا نفيد من خبراتهم ومهاراتم ، ونطرد الخوف من مواجهة الكبار . وأخذ يحدث بعدئذ إذا توفر لاعب واحد فقط أكبر منا ، أن نتكتل ضده ونبارزه فى التهديدات والشتائم قبل الموافقة على انضمامه إلى اللعبة ، وتجرى القرعة بقرش أحمر ، على الفريق الذى سينضم إليه والذى سينقص عدد لاعبيه واحدا ، عن عدد أعضاء الفريق الثانى إذ أن اللاعب الكبير باثنين . وطالما خرجت من اللعبة منهكا ومدمى عند الكوعين والركبتين . ذلك هو اللعب وهذا قانونه وثمنه و كى يتسنى لنا أن تطول قاماتنا ، فلا مناص من التضحية وتلقى الضربات المؤذية بأقصى قدر من المكابرة والمجالدة ، وأنها رتابة ترقى إلى قبول التعرض للأذى دون اشتكاء كيما تتوفر على الأثارة .

فى البال ،اليوم وغدا كرة تذهب وتجيء ، وصبية يطاردونها لاهثى الأنفاس ، عطشى ومحمومين ، يرتطم أحدهم بالآخر ، ويختصمون بسببها ويتسامحون لأجلها ، وما أن تستقر هنيهة حتى تنطلق ثانية ، عالية ومنخفضة ، مستقيمة مائلة ، سريعة وبطيئة ، مراوغة ومطيعة ، وإن نال منها ثقب تهبط قلوبنا وتعتم الدنيا فى وجوهنا ، إلى أن يتعهد أحدنا سد الثقب كيما تعود كومة الجلد كرة طابة نطاطة ، تسعى بين الأرجل والجوانح تلعب بمصائرنا الغضة ، حيث ينالنا التوبيخ فى البيت عما اقترفناه بحق البنطلون والقميص والحذاء من تعفير وإتلاف وتمزيق ، لكن الأمر لا يلبث أن يهون مع تمنية النفس بيوم جديد تنتظرنا فيه الكرة ، كى نثأر من الرتابة برتابة أقوى تنتضى لها أبداننا .

(2)

ثمة الكرة البرتقالية الموسومة بكرة السلة ، إنها كرة جديدة على الدوام ، يسيل لها اللعاب ، كان يروقني أن أشاهد مبارياتها دون مشاركة في اللعب . إنها والحق أشد رتابة ، فالملعب ملعب المدرسة أصغر ، واللاعبون أقل ، يتزاحمون ويتكومون فوق بعضهم بعضا . يتواجهون متلاصقين ويتناهشون الكرة كأنها قطعة حلوى ، جربت أن ألعب فانتابني ضيق شديد من تلك الأيدي اللجوجة الطامعة التي ترتفع أمام وجهي أما الفرجة فإنها فرجة ولا تكلف شيئا ، وأكثر ما كان يفتنني استحواذ اللاعب على الكرة ، يمسكها بكلتا يديه بكل الرغبة واللهفة ولا يفلتها ، مما يدفعني للتساؤل في ذلك الحين لم لا يحتضنها لفترة أطول ، لم لا يخبئها تحت قميصه لينفرد بها ما دام قد ظفر بها ، إنها بجلدها المشدود البرتقالي المنمنم الأكثر جاذبية وخفة من كرة القدم اليابسة المتربة والخشنة ، على أني لم أكن لأدهش لمطاردة بقية اللاعبين لذلك اللاعب الذي استحوذ على الكرة الوحيدة . إنهم يريدون انتزاعها منه لأنهم يغارون منه ، يطمعون أن يستحوذوا مثله على الكرة الجميلة المخططة بالأسود ويسوؤهم أن تكون له وحده (بعدئذ طور أحدهم فكرة الصبي ، واقترح على الملأ نظريته الخارقة : كرة لكل لاعب) كان يثير استفزازي وحنقي أن اللاعب وقد استحوذ على الكرة ، يسارع ليضعها وهو غافل في سلتهم العالية ، صحيح أنها مفتوحة من الأسفل ولا يستقر فيها شيء ، إلا أنهم قد يهتبلون الفرصة ، فرصة وصول الكرة إلى سلتهم كيما يستولوا عليها ويزعموا أنها وقد باتت في مرماهم فقد باتت أيضا ملكاً لهم ، بدليل أن من كانت بحوزته ، قد اندفع راكضا ليتخلى عنها ويسلمها طواعية ويغشاه الفخار .

على أنه حدث أن استولى أحد التلاميذ الأشقياء الفقراء على الكرة ذات مرة وخرج بها من الملعب . ضحكنا جميعا من فعلته ، بالنسبة لي

فقد أعـجبت به أشد الإعجاب إلا أن اللاعـبين على الأخص من يكبرونى سنا ، سخروا منه وطاردوه ، وأدركـوه وقد اختبأ فى الحـمام (المرحاض) أمسكوا به وتحلقوا حـوله ، أشبعوه هزءاً وتقريعا وتهـديداً حتى أن أحدهم ركله بقدمه وانتزعوا الكرة منه وحرموه أياماً طويلة من اللعب ، فالكرة كما قالوا ليست ملكاً لأحد ، إنها للجميع ، للمدرسة . . لوزارة التربية ، ولم أفهم كيف يكون للمدرسة الصماء كرة ، ولا يكون لأحدنا مثلها ، يحملها معـه إلى البيت مع حقـيبتـه وكتبـه ، حتى أنى لم أفهم ، فى البـدء ، ما علاقة الكرة بالسلة ، فكيف تضع الكرة فى سلة الخبز والفواكه والخضار ، أهى كرة أم بطـيخة ؟ لماذا تضـعونهـا هناك فى السلة عوض أن نتـقاذفـها ونطيـرها فى الهـواء ونلـتقـطهـا ونضـرب بهـا رؤوس من لا نحب ، لم تضعونها هناك ، ولا يؤوب أحدنا بها إلى البيت ليلاعب بها شقيقاته ، ثم يلعب بها منفرداً حتى ينسى المدرسة .

(3)

كنـا نسمـيها الكـرة الطائرة لا كـرة اليد والتسـمية القـديمة أجمل ، فطيران الكرة وارتفاعها وانفلاتها ومفارقتها لمدى الرؤية الأفقى ، يطغـى فى أهمـيتـه وجمـالـه ، على الإتيـان على ذكـــر العــضـــو أو الطرف الذى يسـتـخدم فى الـلعب ، وهى اليـد . وما دام أننا مـحـرومـون من طائرة تطيروتطوف بنا ، فـلتكن لنا كرة طائرة تطير مـعها مـشاعرنا وتوقـعاتنا . شاركت مرتين أو ثلاث مرات فى اللعب وتوقفت ، أو قفنى معلم الرياضة ، لـم يكن الملعب الصـغـير يروقـونى ، إنه لايكفى لأى شىء ، بوسـعى أن أقطعه راكضا جيئة وذهابا مائة مرة ، اللاعبون شبه متوقفين ، متسمرين فى أماكنهم لا يبرحـونها إلا لمسافة مترين أو ثلاثة أمتـار ، يعودون بعدها إلى مواقعـهم ، فما الفائدة ؟ وفى الغالب ينتظرون الكرة أن تأتى إلى مـستوى رؤوسهم لينطحوها أو يردوها بالكفين يالها من لعبـة بطيئة لايرى فيها أحد أحداً ، يرون الكرة فقط ويحرسونها من الـسقوط ، إلى أن تتوتر اللعبة ، حين

يضم الفريق الآخر لاعبا يمتاز بتـوجيه الضربات التى تدفع الكرة بقوة هائلة بزاوية 45 درجة على مـا قدرت . إنها ضـربة ال (شوت) ما أن يتـوفر لديهم لاعب مثل هذا حتى تـرتسم ملامح هزيمة محققـة لفريقنا وحتى لو كان لدينا لاعب مثله فـإن لاعبهم ما أن يستمـرىء الأمر ويأخذ فى إرسال ضربات مـتلاحقـة كضـربات القدر ، حتى يتـخبط لاعبـونا أمام الهـجوم الكاسح الذى لم يحسب حسابه والذى لا راد له ويفاقم من ذلك توبيخات أسـتاذ الرياضـة للاعـبين الذى لا يعودون يمـيزون بين الدرس والمبـاراة بين الواجب واللعب بين ما تعلموه مـن قبل وما يشهدونه اللحظة ، وكثـيراً ما ابتلينا بمثل هذا اللاعب ، الذى إن تفرست فيه من قبل اللعب أو حتى بعده فلن تلحظ فـيه ما يميـزه ويبزه عن سواه ، بل قـد يبدو خـفيفـاً ناحلاً بلا عضلات ومنكسر النظرات وما أن يبـاشر اللعب ، حتى ينقلب إلى مخلوق آخر ، شديد المراس والتجهم وعلى درجة من العناد والثبات ، ولـكأنه جاء لينـتقم منا شر انتقام ،وليس بيننا وبينه من خصومة أو ضغينة .

ولم يتوقف الأمـر عنده فقد حدث مـرة ، مرة لن تتكرر ، أن ابتلينا بلاعب لم نحلم بـه ، اللاعب الذى يفـتـتح البـدايات ويقف على الرأس الأيسر لمربعهم ، ويـؤدى ضربة ال (سيرف) لقد جـاء لنا بـفن لم نسمـع بمثله من قبل . إنه يضـرب ضربته كـما قيل لنا (نحـن جـمهرة التـلامـيذ المتفرجين الذين لا يتقنون غيـر الفرجة ولا خبرة ولا دراية لنا فى اللعب. .) على الطريقـة الروسيـة ويا لها من طريقـة : تنطلق الكرة صعـوداً ، على ميلان محدود بارتفاع سبعة أو ثمانى أمتار ، إلى أن تسقط بعد طول ترقب وتربص على ملعبنا ، تسـقط بطريقة التفافية مـلتوية ، حلزونية ، لا يمكن ردها ، إذ ما يعمد أحد إلى ردها حتى تنحـرف إلى جهة لا يمكن احتسابها . وفـوق ذلك فإنهـا تلحـق بأصابع اليـدين ألما شـديداً (تعـقصهمـا) كما أنبأنا أستاذ الرياضـة . فى البدء خلنا أن تلك الضربة إن هى إلا ضربة حظ ، أو محاولة استعراضية ، نجحت بالمصادفة ، فإذا بالأخ اللاعب يكذب ظنونا

يعيـد الضربة أياهـا بالطريقة ذاتهـا ، الطريقة الروسـية ، وبالإعـجاز ذاته ، وليحقق النتـيجة ذاتها : إصابة محـققة ، ثم تتكرر ضرباتها ، فـيما نحن ذاهلون مما نرى إلى أن نجح أحـد لاعبـينا ذات مرة، في رد الكـرة ، وكأن السماء أشفـقت علينا ، حيث سارع لتقليد ذلك اللاعب ، فكانت الـنتيجة بائسة . سـقطت الكرة على سطح المدرسة ، وفي مرة ثانيـة أرسلها لاعب آخر من فـريقنا إلى الشارع المجـاور ، وكأن من قذفـها أعـمى لا يحسب حساباً لمسافات أو اتجاهات استـولى علينا غيظ وكرب ، فنحن سائرون سير الخـراف إلى هزيمة مـدوية ، إلى أن وجـدتني أنا المتـفرج المأخـوذ ، وقـد استيقـظت لدى شيءً فشيءً الروح الرياضية بدأت أعترف لنفـسي بإعجاب خفي وحقـيقي بذلك الساحر صاحب الضـربات الروسية ، وتمنيني أن تظل الكرة من نصيـبه ، ليتـاح لي الاستمـتاع بذلك التـفنن الذي لا يضاهي ، ليربح فريقهم المبـاراة . . ليربحها ، لم لا يربحها ، إنهم يسـتحقون ذلك بجدارة تامة ، فهل لدينا لاعب مثله ؟ وهكذا كان . . مع كل ضربة يشهق صـدري ويرتفع نظري إلى الكرة العـالية التي تشق الفـضاء ، كـقذيفـة ، لتسقط بعد طول انبـهار واحتباس أنفاس على مربعنا ، سـقوط صاعقة ، حتى أن اللاعبين أخذوا يتفادون كـرته ويدعونها ترتطم بالأرض ، فهي كرة غريبـة لم يألفوا استـقبالهـا من هذا العلو ، وعلى هذه الشاكلة المحـيرة ، وأسعـدني اكتـشاف أن أصـدقائي يكتمـون إعجـابهم بما يرونه : ذلك هو اللعب . ذلك هوالفن ، وليس تبادل الكرات والتربيت عليها .

أنشأنـا نهمس لبعـضنا محـاذرين أن يسمـعنا معلم الرياضـة : أنهم يستحقون الفوز حتى علينا وأن طريقتهم ، طريقته هو ، على الخصوص في اللعب خارقة وكانه لاعب أجنبي . ثم ألفيتني انشغل عنهم ، عن اترابي (بلغة المدرسة المتفصـحة) بالانشداد إلى ما يجري . أخذ لاعـبهم يوالي ضرباته فـي انتظام وانتـشـاء : كل الـوقت لـــه كل الألق والألمعـيـة لمن لـم يكن يـعرفه مـن قبـل ، فليـعرفـه الآن يـوالي ضرباته وأنا أراقـبه في افتـنان ، لـو

كنت لاعبا ، سأكون مثله .

تندفع الكرة إلى أعلى علو رأينا وكأنه قذفها بقدمه لا بكفه وهو يجعل كفه مستقيمة عامودية ، لا منبسطة مفتوحة ، يدفع الكرة فى لمح البصر وقبل أن ترمش عين إلى علو شاهق ، وتبدو فى علوها ذاك صغيرة ومسافرة ، ومن فرط الاندهاش لا تعود نتبينها بأعناقنا الصغيرة المشرئبة . نراها فقط رأى القلب لا العين ، وإذ تساورنا لهنيهات مخاوف أن تسقط على إحدى رؤوسنا ، فإنها لا تخطىء هدفها أبداً ، إذ تستقر فى كل مرة علت مربعنا ، وتحف بهذا اللاعب أو ذاك أو تقع أمام ذهوله وانجماده وقوع شهاب ، أو كرة على وشك أن تنفجر . . وعلى ما فى المشهد من غرابة فقد وجدتنى أثبت نظرى إلى أعلى غير آبه بما يحدث على أرض الملعب من خيبة ، متابعا الكرة الصاروخية التى لا تلبث فى هنيهة أن تصير إلى كرة صغيرة غائمة تعلق فى موضع من الفضاء ،ومع ثباتها تنطبع صورتها فى النفس انطباعا لا يزول الآن وقد انطوت أعوام وأعوام ، على تلك المباراة الذهبية ، فإننى ما أن استذكر أفانين ذلك اللاعب الذى غامت ملامحه (فى الأصل لم أتبينها) حتى تطوف بى تلك الصورة : إنه يوالى ضرباته دون توقف ، بحمية لا تهدأ ولا ترتكز ، لقد انتهت المباراة ولكنه يوالى ضرباته .

تفرق المتفرجون واللاعبون وما أنفك يرسل بالكرة مرة تلو أخرى ، بالعنفوان والاتقان ذاتهما ، إلى نقطة أكاد لا أعاينها ، تتوقف فيها الكرة ثم تأخذ فى الإختفاء عن ناظرى ، ولدرجة أتسائل معها بانشداد وانشداه صبى العاشرة :

من أين كان يأتى بالكرات كل مرة ، يرسلها تباعا فى الفضاء ، لتغيم ، وتغيب فى جوف الغيوم المنخفضة .

أكان يعيدها إلى مكمن لها ، هناك فى الأعالى ، لتجتمع وتحتشد معا

بين يدى جامع للكرات .

أكان يرسلها لتـذوب وتتلاشى ، فلا تبقى كرة تعبث بهـا أيد مرتجفة جهولة .

أكان يحـملنا على الاقلاع عن اللعب والتوسل بـلعبة أخرى ، لعـبة أرضية تليق بمعهود سذاجتنا .

أكان يضع حدا أقـصى لتلك اللعبة ، وينقذها مـرة أخيرة وإلى الأبد من رتابة اللاعبين ، وقلة حيائهم وشح خيالهم وركيك مهارتهم ؟

استذكر ذلك ، وفى وهمى أن تلك الكرات قـد انبعثت ولـم تعد بعد إلى الأرض . تلك الكرات ذات الأرواح العـنيفـة ، فـفى كل منهـا روح رياضية تنادى شقيقتها .

شمس صغيرة

كنت بعد جد صغير ، فى السادسة أو السابعة . أقصد مع أصحابى حقلاً قريباً من البيت : أصحاب لا يختارون بعضهم بعضاً ، تختارهم الجيرة والقرابة ومصادفات الأزقة .

فى عودتى من حقل القرية وكان يسمى حاكورة ، وفى مسمى جار آخر : الدرجة ، إذ كان على اتساعه المنبسط أشبه بدرجة واحدة قبل الانحدار إلى وادٍ عظيم . فى عودتى كنت أتأخر قليلاً عن نصيحة أمى ، فلا أعود قبل الغروب بقليل بل بعده بقليل . كانت أمى طال عمرها متسامحة معى ، أعذارى مقبولة وذنوبى مغفورة . وبلغة هذه الأيام وهذه السن ، كنت أخاطبها : قليل من هذا ، هذا يساوى قليلاً من ذاك .

إذن فى وقت مبكر ، قبل اليفاعة والصبا ، فى العمر الأولىّ الضبابى عشت تجربة لا أنساها . وتكاد تكون تجربة جمالية خالصة . أجل ،جمالية ، لم لا ؟ وكنت بطلها وحدى ، بمفردى دون شريك ، ومع ذلك لا أتردد فى اعتبارها تجربة غير قابلة للتكرار ، وتركت فى نفسى أثراً لا يمحى . والآن إذ تجنح بى سخرية الكهولة ، وأنا أستعيد تلك الأيام ، فأنى أجدنى أقول : إن الولد الصغير الذى كنته ، كان يتوفر على . .قلب كبير . . بالطبع لا يروقنى هذا الوصف : قلب كبير . وليس من عاداتى بعد ، اللجوء إلى التبجح ولكن ما الحيلة ، إذا ضرورة السرد تقتضى ذلك . ولا صلة لهذا الوصف ، بمشاعر العطف أو الرحمة أو الغفران وما يشاكل ذلك من صفات أصحاب القلوب الكبيرة .

إنى أعنى أمرا جد مختلف .

ففى أمسيات الصيف ، حيث كنت أقضى الشهور الثلاثة للعطلة المدرسية فى القرية ومع العائلة ، فى تلك الأمسيات كان يطيب لى أن أشهد غروب الشمس . وكثيرا ما شهدت بزوغها أيضا ، إذ كنت أخرج مصحوبا بجدتى لأبى التى يقع اختيارها على دون أخوتى لتخرج قبل الفجر إلى الخلاء . . إلى مسافة لا تقل عن خمسة كيلومترات ، كى نعود غانمين بسلتين مملوءتين بالتين الجديد الندى وبشىء من نبات المرمية وبنباتات برية تعرفها جدتى خير المعرفة . بعضها يوضع مع الشاى ، وبعضها يغلى ويشرب لدواع صحية وبعضها لتطييب رائحة الماء أو الطعام ولإقفال فوهة إبريق الماء الفخارى ، وبعضها لتنظيف الأوانى . كانت الطرق ضيقة وملتوية ، مفعمة بالشوك والحجارة وروث الأبقار والخيول ، شديدة الوعورة . وكانت جدتى مثلى قليلة الكلام ، وكنا نسمى تلك الرحلة : « سراحة » بتسكين السين . وكان ينبغى علينا أن نعود بعد أقل من ساعتين قبل أن يستيقظوا . مع وصولنا إلى الهدف ، إلى الحقل الخاص بالعائلة ويسمى الرزق والذى لا تفصله عن سواه من الحقول أية علامات « حدودية » كانت الشمس تشرق على حبات الندى وعلى التراب ، وعلى ثمار التين والعنب وعلى الصخور التى تبدو مبللة . شىء يشرق فى قلبى حينئذ ويهتف لى أن أفرح . ولم أكن أفرح سوى للدفء الذى يتسلل إلى أوصالى . فيما تحتشد وتنتصب أشجار الزيتون الضخمة والكثيفة ، التى تحول بينى وبين تحديد الجهة الشرقية التى تبزغ منها الأشعة الأولى . وكنت أخاف ذلك الاتساع الهائل ، والانقطاع الذى لا تتنسه أصوات بشرية . أنهمك فى التقاط حبات التين الناضجة ، محاذرا تلك الصلبة أو قليلة الطراوة غير الناضجة ، مخافة أن تتلوث يدى بالسائل اللبنى الذى يرمد العيون . أما طريق العودة فكان أقل مشقة . سأعود إلى البيت الدافىء قبل أن يستيقظوا وقد شاركت بجدارة فى أداء المهمة الصعبة المحمودة ، وعدت حاملا سلة ثقيلة ولا أتحدث مع جدتى فى الطريق سوى عن الراحة والتعب

وطول المسافة أو قصرها ومتى نصل . فيما يزداد عدد الناس الذى نصادفهم فى طريق العودة ، خلافا لطريق الذهاب الخالية . أما مشاوير العصر ، فهى للعب والتمشى وقضاء وقت حر .ولم أكن أبتعد فيها أكثر من مسافة تستغرق عشر دقائق ركضا . ذلك أنه إذا حل الليل وذهب كل إلى طريق ، فسوف تتهددنى وحدى الكلاب الرهيبة ، التى لا يمكننى رؤيتها فى العتمة الحالكة ، إلا بعد أن تصبح قبالتى . كلاب لا تعرفنى ولا أعرفها ، ولا خبرة لى فى تهدئتها أو مقاومتها أو النجاة منها .

أذهب إلى حقل يخص أحد الأقارب . حقل دار عمتى وهو حقل فسيح يضم مائة شجرة تين وتتخللة خطوط من البطيخ والخيار والبامية والبندورة . كنا نمشى أو نركض أو نطيل وقوفنا دون سبب ، نتحدث كالكبار عن الحرب والوظائف والسياسة ، أو نتساخف ونتحدث ونفكر كالصغار الأصغر منا . وكان على الدوام يفصل بيننا أننى قادم من مدينة أعيش فيها وهم يقيمون فى القرية لا يبرحونها ولا يعرفون شيئاً خارجها أو عداها .

وحين تأخذ الشمس فى المغيب ، يأخذ شملنا فى التفرقة . وأتذرع بسبب ما لبقائى أتراجع قليلا إلى الوراء ، لتقصير مسافة العودة . ثم أشرع فى تلك اللعبة الممتعة لعبة مراقبة الشمس .

أقف قبالتها وقد راقنى أنها تحولت إلى كرة برتقالية تامة الاستدارة ، وأنه يمكننى تأملها بعينين مفتوحتين ، وكنت أتصورها فى حالها ذاك قمراً بدراً . إنها بحجمه وتضىء مثله إضاءة شاحبة ، وقد تخففت من عظمتها وتعاليها ولهيبها وباتت رقيقة أليفة ، قريبة وذات لون جذاب بلون الكرة البرتقالية التى يبهجنى إقتنائها ولا أحملها معى من المدينة إلى القرية .

إذ كنت أتوقف لمتابعة المشهد ، مندهشا لغرابة أطوار الطبيعة . إذ كيف للشمس العظيمة أن تنكسر بهذه البساطة وتتهيأ للسقوط والذوبان

والإختفاء ؟ . وكنت أصدق أنها تذهب لتنام كما نفعل نحن ، والفرق بيننا أنها لا تتأخر عن مواعيدها .

في تلك الأثناء وأنا أقف على تراب شديد الإحمرار ذي رائحة نفاذة ، كنت أفتقد العصافير التي تختفي تباعاً فيما تنبعث أصوات خافتة غامضة لحشرات لا يراها أحد ، ويتولاني شيء من الخوف أن يسقط الليل دفعة واحدة لا بالتدريج . ويوما عن يوم أدركت أن مخاوفي لا محل لها ، فالشمس لا تنطفئ مثل النار .

ولأعترف مع ذلك أن قلبي يخفق في الأثناء خفقاً شديداً . ودون أن أعرف بالضبط . لماذا هل لخشية تكون الشمس على وشك أن تغرق وتموت . . ؟ من أن يكون الليل وحشاً قادراً على ابتلاع الشمس كانها لم تكن ؟ واعرف أنها تتابني الرغبة ، في أن أركض نحوها لأدركها ، طالما أنها باتت صغيرة بحجم كرة ، وطالما أن لها هذا اللون الفاتن . وما دمت لا أستشعر لها لهباً ولا سخونة حارقة تثير الرهبة .

آنذاك في تلك اللحظات ، كنت أرى عن بعد من قريتي غرب رام الله ، كنت أرى البحر يتلألأ وهو البحر الذي يطيب لنا تسميته منذ تلك الأيام وقبلها وبعدها ببحر يافا أجل كان يتلألأ في الصيف إذا مانظرت إليه من بعد ، أما إذا تريثت قليلاً بعد الغروب ، فلسوف تعاين مركبات مضيئة تسير على الطريق الساحلي . مركبات غير معلوم إن كان يقودها عرب أو يهود ، جميعها صغيرة ولدرجة أنها مجرد نقاط ضوء متحركة .

إذن فإن فلسطين (كنت أفكر) ليست بعيدة ذلك البعد . . لو كانت بعيدة لما رأيت بحرها والمركبات على طريقها .

أجل . كان البحر يتلألأ ، وكانت نقاطها البلورية تخف زرقتها

ويخالطها بياض وفى رؤيا أخرى ، يكاد السطح ينفصل عما تحته . السطح يميل إلى بياض ظاهر وما تحته أزرق داكن الزرقة . وفى البياض لمعان شديد ، شهدت مثله بعد إذ فى مشاهد السراب فى طريق الإسفلت فى الصحراء والمدن . ويزداد التلألؤ حين تشف الكرة البرتقالية ، مؤذنة بالسقوط .

ولسبب ما ، وأن اتسمع لاضطراب خافقى ، تستحثنى البراءة أن افعل شيئاً ، أن لا أظل واقفا دون حراك . كنت أفكر أن أصرخ وقد فكرت أن أطير . ثم تعقلت وفكرت بالركض لأرى كيف تسقط . هل تغرق فى البحر . . هل تنطفىء ، هل تذوب ؟ إن بوسعى النداء أو الهتاف أو الصراخ . لكن لمن . . . للبحر أم للشمس ، وأنى لى معرفة بلغتيهما ؟

كنت أقف مأخوذاً وأخشى أن يداهمنى أحد فى وقفتى تلك . وخاصة من كبار السن ، ولهؤلاء كلمة لا ترد فينتهرنى أحدهم طالبا منى التعجيل فى العودة لأن أهلى ينتظروننى ، ففيما وقفتى تلك وقد أوشك الليل أن . . . . ؟

وإذ يسقط طرف من القرص فى الماء ، أشعر على التو بوخز شديد فى موضع مامن روحى . الشمس العظيمة الجبارة التى لا يستطيع رجل أو امرأة التحديق فيها تنكسر ، والبحر يستعد لابتلاعها . البحر الذى لا يشرق ولا يغيب ولا يوقظنا من النوم . ولا ظل له ولا يتزحزح من مكانه البحر يبتلع الشمس ولا أحد ينتهره أو يوقفه عند حده . حين ذاك كنت أشهق وأغص فلقد فتنتُ مع ذلك بالمشهد إلى حد الألم ، إلى درجة يختفى معها البحر الجبار عن ناظرين كما تضمحل صورة جلاد وتختفى وراء هالة صورة الضحية،وأراها . . أرى شمس صغيرة حبيبة بحجم كرة برتقالية وأصغر ، بحجم برتقالة ناضحة ، أراها تتفلت وتنجو من مصيرها الأسود . . تتقدم صوبى ، تتقافز ، تتعابث ، تتسارع ، تتقدم نحوى إلى

صدرى فينفتح لها قلبى من تلقائه ، فيفسح لها المكان كله ، وفيما أنا مغمض العينين تتغيب هناك بتؤدة واستسلام ، كى تشرق ما شاء لها الإشراق بين حناياى حين إذن حين اكتمال التجربة أعود إلى البيت على عجل ، وقد هدأت روحى واستقرت نفسى . لأقف أمام الشباك العالى الذى له هيئة قوس أو نصف دائرة قوس كبير (شكل منقلة فى علبة أدوات الهندسة المدرسية) ويسمح لى بالجلوس على أرضية جدار المقوسة التى تنتهى به ، بالشباك إلا إذا كانت أرضيته مشغولة بصوانى التين أو العنب الذى نجففه ، أو بأنصاف حبات البندورة التى نجففها أيضاً ، كان الحيز يتسع لجلوسى . إذ لو وقفت على الأرضية الأسمنتية للغرفة بقامتى القصيرة فلن أرى شيئاً . من هناك كنت أتملى شحوب المساء وجنوحه المضطرب إلى السواد ويؤنسنى أن مركبات صغيرة مضيئة تتحركِ وتسير ، فالحياة لم تتوقف كان يكدرنى فقط ، أنى لا أسمع صوتاً لتلك المركبات فلا ينطلق منها أى زامور ، أنها على صمت تام مثل الحشرات المضيئة التى أتعثر بها على درج بيتنا الريفى القديم .

وإذ أغفو بين أخوتى على الفراش الممدود على حصيرة ، أكون متيقنا أنى سوف أهب فى الغداة مستيقظاً مع الشمس ، رغم أن أشعتها تتسلل بصعوبة إلى الغرفة الكبيرة (إذ لا شباك شرقى هناك فقط شباك صغير شمالى إضافة إلى الشباك الغربى الكبير) سأستيقظ إذن فى اليوم التالى مع الشمس الجديدة ، التى نجت من الغرق وأستودعتها قلبى . إذ لها فى الليل فيما أنا نائم والجميع نيام . . لا أن تخرج من صدرى وتذهب إلى مكمنها وتبدأ منه رحلتها . .

لا اذكر كم مرة تكررت التجربة أعرف فقط أنها ملأت نفسى واستوطنت روحى . لقد تعاقبت الأعوام على وتقدم العمر بى ،ومضيت بعيداً عن قريتنا عن حقل أشجار التين . . عن أصدقاء بلا أسماء ، عن

عصافـير وافرة تتطاير مثل فراشـات ، وعن شباك الدور العلوى الذى يطل على بحر يـافا ولـم أعـد انتـبـه لا لبزوغ الشمس ولا لأفولهـا . فشمس كل يـوم شمس الأرض الواسعة والشعوب الكثـيرة ،غير ذلك التى أودعتها قلبى .

رؤيـــــا

المبنى الضخم والجسيم من الخارج فـسيح من الداخل . جدرانه مطلية بزيت رمادى فاتح، وحجراته الصغيرة تقف متقابلة لا يميز بينها شيء . إنه يعرف المكان جيدا كأنما رآه من قبل فى أحـلامه . يعرفه ويدرك مدى غربته فـيه ، لكـنه يدارى أو يقايض الـغربة بالاندهـاش الدائم : أن يكون المبنى أوسع دائما مما يظن ، وأن يوفر باستمرار مـتاهة عصرية تتيح لزائره أن يبلغ هدفه بـالخفة ذاتهـا التى يضل بهـا سبيلـه . ففى المدخل حـشد من إدلاء ومفاتيـح وخريطة مجسمـة وموظفى استقـبال مهندمين ، تتخللهـم موظفة واحدة تنوء بانفرداها . ويحـار من يشاهدها أن كانت جمـيلة لإنها وحدها بينهم ، أم هى جمـيلة بذاتها قبل أن يلحقـوها ويحشروها فى جـمعهم . لست غـريبا إلى تلك الدرجـة ، لكن المكان شديد الوطـأة ويضمـر ورشة صامتـه . وتوشك أن تكون غريبا طارئا فى كل مرة ، مـا دامت تتردد إلى المبنى وتختلف إليه بغير ما انتظام ، دونما مواقيت وبلا احتياج أكيد : تزور صديقا دائم الانشغـال ، أو تلبى دعوة قديمة نسيها أصـحابها ، أو تستطلع أمرا لا جواب عليه هنا ، أو تسعى لأن تكسر ضجرك . . أنك تكسره حقا لكن الزجاج يجـرحك ، فتتـعرف إلى دمك هذه المرة كـأنما لأول مرة ومع ذلك فهذه هى الحياة .لك أن تلاحظها وتعايـنها فى سيولتها التى لا ضابط ولا تشكيل لها ، أو تتفرج على ذات نفسك وهى تنسل هنا وهناك وتقضى لك أوطارا صغيرة .

ما هذه الرائحـة ؟ تسأل أحد المقيـمن من مألوفى الحضـور والوجه .. يرحب بك بمجاملة نشطة ويقودك عبر الردهات بحـيوية واستقامة. أنه فارع الطول وكأن نشاطه الفائض نتيجة حتمية لطولة المتمادى .

تسأل السؤال بحذر مشفوع باعتذار مسبق ، فـيهز كتفيه مستغربا : الا تعرف ؟ لا ، لا أعـرف . ويسالك : ألا تميز الرائحة ؟ تجيـبه : بلـى ، إنها رائحـة تراب . فيربت على جذعك : أحـسنت ، تلك هى الرائحة . ويغمز بإحدى عـينيه باسما ، وهذا أسلوب يلازمه للتدليل على مـعرفته بما لا يعرفه سـواه . يعرف أن أمرا قد حدث ، ويدرك دون غـيره كيف ولماذا حدث ؟ حتى إنه يعرف فى صمـته الموارب (لمصلحة من ولحساب من ؟.) . وإذ تبدو محـتارا فى مقاصـده ، فإنه يسرع فى مشيـته متبـاعدا عن رخاوة براءتك ، ويلقى فى اللحظات الأخيرة مفـاجآته وهو يدير وجهه صوبك : المبنى ينهار ، وهذه رائحـة انهياره . وتلاحظ أنه يهـرول فى مشيـته هرولة الهارب الناجى ، وقد منحك الوقت الأخيـر الذى لايمكن هدره والتضحية به ،قـبل المسارعـة للنجـاة فى الوقت المناسب . أن رجـلاً من هذا الطراز ينبغى له أن يتعـرض لقدر من الخطر يتيح له إحراز نجـاة بارعة فى الدقائق الأخيرة . فما قيمة أن ينجو فقط ككل الناجين إن لم يتعرض قبلئذ لمخاطر ما ، لامتحان ينجح فى اجتيـازه وفى إذاعة حوادثه وأسراره على من يعنيهم الوقوف على « القصة الحقيقية لما حدث » .

إنها رائحـة تصدم الأنفاس . لقد نقل المعلومـة إليك ، برباطة جأش كما هو دأبه عـلى مواجهة الخطر واستـقبال المفاجـأة . ثم اندفع فى طريقه المأمون كى ينسج لنفســه أمثولة التدبر وحسن التـخلص . ويدهشك حينئذ رغم معرفتى القليلة به إنه يقيم على عـاداته ومأثوراته أشد أهمية منه هو : من قوامه البشرى وغرائزه وبداهته ككائن بين الكائنات .

إذن فـإنها رائـحة تراب ، تراب الانهـيـار . تتلفت فى الأرجـاء يمنة ويسرة أماماً ،ووراء إلى السقف ومواطىء الأقدام ، فإذا المبنى يخلو سريعاً من العاملين والزائرين وقد هب كل منهم يستدرك طيف نجاته . وتتساءل : مـا الذى جاء بك إلى المكـان فى هذا اليوم الأغـبـر ، وكنت انقطعت عن

زيارته فى الأيام الصـافيات الـرائقات ؟ ايكون فى الأمـر تدبير ما وحـكمة شيطانيـة مستغلقـة ؟ تسأل ذات نفسك وإذا بخطاك تدفعك إلى غـرفة بين عشرات الغـرف ، لا يميزها شيء عن غرفة أخرى بمساحـات متناظرة سوى أنك ألفتهـا من قبل ، بخبرة سابقة تأتت لك . تبلغ الغرفة التى لا باب لها وكما تدخل مـحلاً تجارياً ، مدخله هو الحائط الرابع غيـر المقام . تشخص بانظارك إلى السـقف : هناك فجـوة كبيـرة . والأرضيـة مفـعمة بـالتراب والأسمنت والكرتون . ليس فى الأمر إذن من مبالغة أو تهويل فلا يعقل أن يتكدس التـراب على مكاتب صغـيـرة دونما سبب . . تلحظ فى منتـصف الغرفـة آنسة وحيـدة ، تنشج بصمت وتكظم الغـيظ . إنها الفـتاة التى لم يصل بينك وبينها حبـل ود ، حتـى إنكما لا تتبادلان التحية فى هذا الظرف العصيب . تفاجأ بحضورك وتحضنك عيناها الخضراوان بدموع تسح منها . إنها تنتصب وراء مكتبها الصغيـر بأنفة واعتداد أليم . بكامل زينتها وتنبئك نظراتها إنها لن تتزحزح أبداً ، وأن ما افـترضت حدوثه قد حدث بأسوأ مما توقعت لكن لـن تتزحزح أبداً ولن تخـاطبك بكلمة . ليـست ضعيـفة ولا نهازة فرص ، وينتابك الشعور إنك أخطأت المكان ، وإنه لا ماضٍ يشدكما ولا حاضر يجمعكما .

وفـيمـا أنت مأخـوذ بالموقف إذا بالصـدوع تتـوالى ، وتصدر عنـهـا أصـوات تزلزل الأرض تحت قدميك . تقرر الانكفـاء والخروج ، فـيمـا نظراتها تطوقك : ابق معى . . كن مـعى ، دعنا نفعل ذلك لمرة واحدة . وتهم أن تخاطبها : إنى لا أعرفك ، لا يعرف أحدنا الآخر بعد كيما يكون بيننا مشروع جليل كهذا . فيما هى متسمرة على المقعد كدمعة حبيسة تتأبى أن تسقط . وكامرأة القربان تأخـذ كامل زينتها قبل أن تلحق بموكب الخلود تتقدم أنت من مكتب صغير فى الركن . تفتح أدراجه بلهفة وإذا بها تمتلىء بأوراقك المتبـقيـة . تستغـرب كيف أنك نسيت وجـودها فى هذا المكان . تنتزعها على عجل إذ هى أثقل مما توقعت ترمقك المرأة التى يصطبغ وجهها

بقناع زيتى وتفزعك نظارتهـا : ها قد وجدت ذريعة أخـرى للانسحاب ها أنت تنصرف إلى الأوراق ، تشيح بطرفك عنى وعما يحدث للمبنى كله . وما أن تسـترد الأوراق وتقربها من صـدرك حتى يأتيك مرة أخـرى صوت كالزلزال ، فالمبنى يتـداعى من أساسه ، فيمـا ابتسامة الآنسة تتـسع وتصير إلى ضحكة مشرقة منشرحة ، كأنها نسيت المحنة وانصرفت إلى استدراجك . لا لقـد ذهبت بك الظنون الذكريـة بعيـداً . إنها ترسل بندائهـا الأخيـر : سنموت معـا ميتة ذات معنى ، فمـا جدوى أن نحيا بعدمـا تقوض وتهدم المبنى . تحشرج بذلك وهى متمكنة فى وحدتها ، مجللة بالغبار والمعنى .

حُسنُ الختام

مـا أن ماتت عنه زوجـته ، حـتى تعاقـب تبدّل الطبـاع على الرجل السبعينى .

فى بادىء الأمر بـعد أن خلا البـيت منها ، اسـتسلم لحـزن قَدَرى ، جـعله فى حـالة ذهول عمـا حـوله . لم يعـد يواظب على أداء الصلوات واضطربت مواقـيت نومه وصحـوه . وفقد شـهيته لتـناول الطعام والحليب والقهـوة ، وبات زاهداً عن توجيه « دفـة » بيته الذى يضم ابنه العـشرينى وابنته الثلاثينية ، لم يعـد يخرج إلى البستان ليتعـهد الأشجار بتلك العناية الفطرية لكن الدؤوبة . ولم يعـد ينهر القطط ولا يتـبرّم من شىء أو يطلب شيئاً ، حتى أن العنايـة الزائدة التى كان يلقاها من ابنـه وابنته ، ومن ابن آخر وابنة أخرى ، كلاهما متزوجـان ويقيمان ببيتين منفصلين . هذه العناية الزائدة ، جعلت تثير حنقه ، إذ تخاطب فيه عجزه وضعف حيلته . بدا الرجل الأب فاقداً لرغباته المعهودة ، وعـازفاً عن السيطرة على برنامجه اليومى من استيـقاظ مـبكّر لأداء صـلاة الفجـر ، وتناول القـهوة ثم طعـام الإفطار والاستماع لأخبار الصباح فى الراديو ، وحلاقة الذقن وقراءة الجريدة ،والتمشى فى البستان ، قبل التوجه إلى دكان القماش الذى يملكه منذ أربعين عاماً .

أجل ، ذلك كله كـان متـوقعـاً فلم تكن امرأته مـجرّد امـرأته ، بل شريكته وعوناً له فى كل شىء . يتناول معـها الأفكار والأخبار عن كل ما يدور حولهما ، وفى حياتهمـا ، وتشاركه تجارة الحليب والصابون والبرتقال والزيت وتنظيم مؤونة البـيت ، وفى أداء الديون التى بذمته واستـيفاء تلك التى على الآخرين .

لقد فقد معاوناً دائماً إذ لم تكن تتأخر عن إسداء نصيحة أو وضع حل لمشكلة ، أو التخطيط لتجارة ، وكان يروقه أن يهزأ بها وينهرها ، لكي يقبل في النهاية راضياً وقانعاً بمشورتها . وبذلك فإنه يفوز مرتين ، مرة بتخطئتها وتوبيخها ، ومرة بالإفادة من سداد رأيها الرأي ذاته الذي كان منذ قليل محل نقمته وسخريته ، وعندما كانت ترمقه بنظرة عطوف ، متحدّية كما ترمق ابنها الخطّاء .

– ليس لك أحد سواي لا ولد ولا بنت ولا أخ . ولو مت لن تدبّر أمورك من بعدي .

تروقه الملاطفة ، والثقة التي تشتمل عليها العبارات ، فيجيبها بتحية أحسن :

– لن أستطيع فعل شيء من بعدك ؟ جربي وسترين .

وقد قبلت هي التحدي . « جرّبت » الابتعاد عنه ، بالموت ، وها هو يجرب الحياة من بعدها ، دونها . الحياة التي لم يحسب لها حساباً حتى أنه تخيّل أنهما سيموتان معاً ، ما داما ينامان معاً ويستيقظان معاً ، لا ينقطع أحدهما عن الآخر حتى يؤوب إليه مسرعاً حاملاً حصيلة الانقطاع من أحداث حدثت ، من أفكار ساورت كلاً منهما ، لقد ماتت ، وبات عليه مواجهة الامتحان . وقد أثار موتها بعد مرض لم يمهلها ، أثار غضبه فوق ما أثاره من كمد . ولكأنها لم تستأذنه كما جرت العادة ، في الذي تفعله . ولم تبلغه بعزمها على رحيل سريع وأبدي وهذا ما أثار حنقه وخيبة أمله . ثم أضناه الإدراك بأنها كانت عاجزة على غير عادتها ، في السيطرة على نفسها وجسمها ، ولدرجة غفلت معها عن إحاطته بالذي سيحدث لها . ولو لم تكن عاجزة لكانت أشارت عليه بما يسعه فعله من بعدها ، وكيف يواصل ترتيب أيامه وأشغاله فلا يخسر صحته أو ماله أو هيبته .

* * *

ما أن مضت الأربعون حتى تبدّل حاله وحتى أدهشه هو قبل سواه هذا التبدّل ، إذ أخذ ينشـط فى تجارته لكأنه افتتح الدكان حديثـاً . واجتهد فى طلب استرداد ديونه من الناس قليلى الحياء ، ولكن دون نجاح يذكر وبعض هؤلاء من جيـرانه وأقاربه ، وجعل يُعنى بهندامـه ، وبالتلاسن الودود مع التجار المجاورين ومع الزبائن ، وجّل هؤلاء من النساء اللواتى كبر أبناؤهن وبناتهن وتزوجـوا وتزوجن فيـما هنّ يـترددن بانتظام على الدكـان . وفى غمّرة حماسه المسـتجد ، بات يُفاجأ ، بعلل طارئه على بدنه : إن الوقوف على القدمين يتعبه إذا ما أطالت الزبونة تقليـبها لأذرعة القماش . وأنه أخذ ينسى أن هذه بنت أو شقيقة تلك ، وقد اختلط عليه الأمر مرات . وبدل أن يُنزل عن الرف قماشاً أصفر ، يحدث أن تمتد يده إلى قماش تحته أو فوقه ، اختلاطات كهذه جـعلت تحدث معـه ، ويقوم بتغطيتها بالشكوى من الحاف الزبونات ، ومن اسـتنكاف أزواجـهن عن القـدوم ، حـتى لا يدفع هؤلاء ديوناً قديمة ، أو مستحقات جديدة . . .

ومع ذلك كانت النسوة يؤنسنه ، وكل منهن يناديـها ياأختى و : يا أم فلان . كان يشتَمّ فيهن رائحة تلك التى غـابت . كأنهن شقيقات ونظيرات لها . إنهن الزوجات والأمهـات اللواتى لم يمتن بعد ، وما زالت واحدتهن تطبع حيـاة الزوجة والعائلة والبيـت ، بكل ما يجعل الحيـاة تسرى وتنبض وتتجـدّد وتعد بمزيد الألفة والأمـان . ومنهن من تأتينه بطلباتهن المتـقلّبة ، وبالمساومات التى لا تنتهى . وحتى لو انقص عنهن فـى السعر ما لا ينقصه لأحد فإن النقود فى حوزتهن دائماً : سجّل الباقى على أبو محمد . سجل المبلغ على ابنى أحمد . ولا واحدة منهن تسـعف الأخرى رغم أن محفظة الثانيـة تخشخش بالأوراق وقطـع النقد . فمـا دام دفتر الدّين سـوق يُفتح وبداخله قلم للكـتابة فلمـاذا تُنجـد إحداهن الأخـرى ؟ وهذه ليـست المرة

الأولى التى يشترين فيها على الدفتر . حتى أنهن يدفعن أحياناً ، لكن النقود معهن لا تكفى . لو كانت المرحومة موجودة ، لكانت تكفّلت باستيفاء الديون . لكن لأجل خاطرها هى ،فلسوف يواصل تزويدهن بما يرغبن ، وحتى لو تشجّعت إحداهن واشترت قماشاً إضافياً لم تكن تنوى شراءه . يسعين دائماً لشراء المزيد ، « فالواحدة منا لا تخرج كل يوم إلى السوق » .

* * *

ما تبدل عليه فى تجدد إقباله على تجارته القديمة ، وبحماس قديم مستعاد ، خاله قد فارقه إلى الأبد ، لم يكن منقطعاً عن تبدّل أحواله فى البيت العائلى . لقد كفّ عن توجيه اللّوم لابنته التى ما زالت تنتظر حظها ، ولابنه الموظف الحكومى ، لم يعد ينهرها عن كسل أو سماعها للأغانى ، أو استقبالها الطويل للجارات - المتزوجات . ولا عاد يأخذ على ابنه يديه الفارغتين كلما آب متأخراً أو غير متأخر إلى البيت . ولا اختلاطه بأناس « لا نعرفهم » . ولا عن إفراطه فى التدخين . ولا عزوفه عن الوقوف بعد الظهر مع أبيه فى الدكان ، ولا فى عدم تفكيره فى أخته (كانت هذه أشد المسائل إشكالاً على الإبن . فكيف له أن يفكّر فيها ، أى بمستقبلها ، أى بتزويجها) . لقد أخذ الرجل ، الأب ، يتساهل فى ذلك ، وفى سواه : إذا لم يكن طعامه جاهزاً ساعة عودته فى الظهيرة أو العشية . إذا لم يجد قميصه الرمادى مغسولاً . إذا كانت هناك قطة تعبث فى غرفة الضيوف . إذا لم يجد الراديو إلى جانبه ، إذا لم يكن حذاؤه البنى ملمعاً أو وجد ابنته نائمة ، بينما يسهر الإبن فى الخارج ، لم تعد أمور كهذه تكدّره ، بل تخدش فقط مزاجه ورواقه ، كما يقول ، أى ذهنه الرائق وما يجعل أعصابه رائقة . . . ما هَمّ . . ما همّه إذا كانت الحياة تجرى فى مجرى مرسوم لها ، حتى بعد غياب العزيزة الرضية ، التى

جعل غيابها الهواء أقلّ ، والقهوة تفلة ، والطعام بلا طعمٍ ، والنهار بلا باب والليل بلا سقف . ستجرى الحياة فى مجراها ، لن تتوقف ولن ترجع إلى وراء . وسيجرب الحياة بعدها ، حين يستيقظ فلا يجدها إلى جواره ، وحين يطير النعاس من عينيه فلا يجد من يوقظه ويؤنسه ، لكى يشيّع معه الليل الذى لا ينتهى .

- أقلى لى بيضة .

- لا ، ليس جيداً البيض المقلى فى الليل .

- وهل يعرف البيض المقلى أن الدنيا ليل ، فلا يكون جيّداً .

- بدنك يعرف .

- إذن أسلقى لى بيضة .

- سوف تفطر بيضة مسلوقة .

- سأفطر الآن .

- ولكنى لن أصنع لك قهوة .

- سوف أصنعها أنا . أسلقى لى بيضة .

- سوف أسلق لك بيضة ، لكنى لن أفعل ذلك مرة أخرى ، عند الآذان .

- لا أريدها نصفها ماء .

إنه الآن يسلق بيضتين عند صلاة الفجر . ويضطر لأكلهما لابتلاعهما ، لأنها لا تستيقظ وتأخذ البيضة ، حصتها . ويبرد فنجان قهوتها لتأخرها ، فيضطر أن يحتسيه ، ويودّ لو تخطفه عن فمه وتزجره لكنها تتمنّع وتتأبى

عن فعل ذلك .

إنها تشيح بوجهها الحانى عنه .

سيأخذ الدنيا وما فيها ، قبل فوات الفوت .

* * *

ما الذى فى الدنيا ليأخذه ؟

ما الذى بقى له من دنياه ، ليأخذه ؟

جاره البقال . يقول له : بقى حسن الختام .

- وكيف يكون حسن الختام ؟

- أن تُرضى ربك وتستغفره .

- وهل ترانى لا أرضى ربى فى شىء . وما الذى فعلته من ذنوب ؟

- الله وحده العليم بالذنوب والغيوب .

- لا تجعل ذنوبك ذنوباً لى . دعك عنى ، هذا الذى تفلح فيه وأنت تخلط بضاعة ببضاعة ، وترفع أسعارك بأكثر مما ترفع رأسك للصلاة .

- تغيّرت طباعك يا حاج ، رحم الله التى كانت تضبط عياراتك .

* * *

سأتزوج .

قال لابنه أحمد الذى استمع للكلمة وهو غير فاهم إن كان أبوه يمازحه ، أم يختبره .

- من الذى سيتزوج .

- أنا .

- أنت أيضاً سوف تتزوّج ، الدنيا أمامك . لن أهنأ إلاّ برؤيتك عريساً .

- أنت من سيتزوج أولاً ، وليس أختى ، وليس ابنتك ؟

- إذن أنت تفكّر بأختك ، لماذا لم تفعل ذلك من قبل ؟

- هل تمزح يا أبى . . .

- ليس فى الزواج مزاح يا ولد .

لقد بدا الأب جاداً بالفعل ، مع الارتياح الذى بدا عليه وهو يفصح لابنه عما يدور فى خلده . لم يسأله الإبن عمن سيتزوجها . حسناً أنه لم يسأل فماذا كان سيجيبه وهو لم يقع اختياره على إحداهن .

لقد نمت الفكرة فى رأسه (وفى جسده) نمواً بطيئاً ودفيناً ، ربما فى الوقت الذى أدرك فيه أن زوجته غادرت إلى الأبد ولن تعود بعد إلى بيته إلى بيتها . ولا إلى ملازمته فى الصحو والمنام . حتى أن المقبرة بعيدة عن البيت ، وهذه موحشة ، حتى قبل أن تنام فيها الجوهرة . ويدهشه أنه لم يزرها . ولا يتخيّل نفسه يقصدها . سيموت من الكمد لو فعل . . إذ من سوف يمنعه من حفر ترابها بيديه ، كى يلاقى الهول حينئذ . ألم يمنعه المشيّعون من السقوط فى الحفرة ساعة الدفن ، ليرموه بعدئذ بقلة الإيمان ، حتى أنهم رموه بعدئذ بالخبل ، لمجرّد أنه كان يكلمها فى طريقه .

قوة ما ، دعا الحاج فى سريرته أن لاتكون شيطانية ، نمت فى داخله ، وهاتفٌ هتف به ، أن يضع حداً لكل ذلك قبل فوات الأوان . وقد تسمّع للنداء بكل جوارحه ، ولكأنه يرى رؤية غامرة أخذت عليه جميع حواسه

ومداركه . وخلافاً لهواجسه الدنيوية ، فقد رأى فى الرؤيا ، إمارة رحمانية على إيمان عـامـر وإلاّ كيف تأتّى له ، أن يـخرج خـروجـاً هيناً ليناً ، من الظلمـات إلى النور . . كان قلبـه يحدّثـه بذلك ، وعقله يهـتف أنه ليس مـجرّد أرمل بل عازب ، وحقّ العـازب أن يقـترن ويتـخذ له امـرأة . ولن تغضـــب الجوهـرة ، ذلك أنه لا يتـزوج عليهـا ، بل من بعدها . بعـدما فارقته وجـعلته واحداً متوحداً فى النهار والليل ، يدور على نفـسه ويقتات على مالا يقيت من التذكار والنجوى . أدهشه أيضاً ، أنه لم يُلقِ بالاً إلى ابنه وابنته . بدا كل منهما فى ناظريه صـغيراً لا يقوى على الإلمام بما ألمّ به . لقد انقلبا مـرة أخرى ، صغيرين ، ضعيـفى الحيلة وكان له أن يلاحظ هذا التبدّل بعدما غادرت أمهمـا . يبدو أنه لم يلحظ ذلك حينها ، على يتيمىّ الأم . ولا يدرى أية غشـاوة حجبت عن ناظريه رؤية ما كـان ينبغى له أن يراه . الآن فقط اتضـحت له الصورة . أن حال الفقـد الذى طغى عليه ، جعله أمام نفسه فى حال من اليُتم ، تمامـاً كحالهما . فكيف ليتيم أن يُلقى خيمة الحـدب على أيتام آخرين حتى لو كان من صُلبـه ، ولو كانا قد ولدا ونشأ كـلاهما تحت سـقفـه . تحت سمـعه وبصـره وفى كنف تحنان الأبوة ودفئها .

الآن يراهما بوضـوح لم يتضح من قبل ، صغـيرين ، وهو يرنو إلى امرأة ثانية ، تستظل بظله ، وتأخذ بأيديهما .

فكيف للصغيرين أن يتزوجا ، كما يزعم الولـد متعجلاً . أن أمامهما حياة مديدة ، حياة عائلية تتجدّد وتكتسب عمودها وعمادها من زوجة حانية رؤوم تعمق أنفاسها فى مطارح الوحشة .

لا ، لم يكن قـاسياً فى كـثيـر أو قليل ، حين لم يُرخ أذنيه لسـماع محاججة ولده . يحقّ للأب الاعـتراض على زواج الإبن ، أما أن يعترض ابن على زواج أبيه ، فذاك أشبه بأن يدعوه لتطليق أمه . لتنقلب الدنيا كما

يشاء ، لكنها لن تنقلب على رأسى ، مـا دمت أروح وأغدو إلى الدكان ، وما دامت النساء يتقاطرن على الدكان لتفريغها من القماش . سيتزوج الولد ، والبنت سيـأتى نصيـبها . وكلّ شىء بميـقات ولكل شىء حكمـة . كيف سيتزوج هذا وتتزوج تلك والبيت خالٍ من امرأة تستقبل الضيوف ، وتتناقل الأخبار وترسل فيِ طلب من تشـاء . كيف لذلك أن يحدث وكل منا نحن الثـلاثة يُدير ظهره للآخـر ، غافل عن سـواه حتى الطعـام الذى نتناوله ، يتذوّقه كل منا بطعم مختلف ، هذا إذا وجد واحدنا طعماً له أو استساغة . ما الذى يسعنى فعله لهما بعـد أن غابت حارسة البيت . البنت تولول لأننا لم ندفنها مع أمها . ندفنها حية . هـى التى كانت عاقلة وأعقل من أخيها . وهى التى لـم تكن تجيب لأمها طلباً ولا تشفى غليلها بشىء ، وها هى هذه الأيام لا تخلع عنها ثوباً أسود وتمقتنى وكـأنى سبب موت أمها ، وهى من كانت تنحاز لى وتناصرنى فى حياة أمها . أما الولد الذى كان يختال بدلال أمه له ، فـإنك تراه اليوم يتيم الأم والأب . ولكأنه لا وجـود لى . كأنى متُّ . وكلما رآنى فى الصباح والعشيـة يُفاجأ بى ، وقد بقى أن يسألنى ما الذى أفعله بالبـيت . . فى بيتى . يجوز أن الحق مـعه . فمن يفتح عـينيه على رؤية والديه معـاً جنباً إلى جنب ، يحق له أن يغمض عـينيه عن رؤية الإثنين مـعاً . وما دامت الحـاجّة غـابت ، فمـا علة حضـور الحاج ؟ ربما وجودى خطأ فـى نظره . ولعله – من يدرى – يريد تصحـيـح الخطأ . إنه لم يقل لى أين يريد أن يتزوج ، فـى أى بيت ، البيت يسعه وزوجـته حين يتزوج . فـهل يضيق بيـتى عليه وعليـنا ، إذا تزوجت أنا . . سبـحان من يضـع العـقـول فى رؤوس الأبناء صغيـرهم وكبيـرهم . نعم وكبـيرهم . فـحـتى ذلك الذى تزوج ، وسكن بعـيـداً عنا ، ولا يتلطّـف بزيارتنا فى المناسـبات ومـا أقلّها ، فـإنه يشفق علىّ مما ألـمّ بى ، ويعطف على أبنائه لأنهم فقـدوا جدّتهم التـى تملأ أفـواههم بالحلوى وتحشو جيوبهم بالسكاكر ، ويحنو حتى على زوجته التى فـقدت حماتها والتى كانت تشور عليـها فيما

تصنعه بالأثواب وفى المطبخ وفى تربية الأولاد ، أما أنا فـيشفق علَّي لتعبى وقصـده أننى انتـهيت ولـم أعـد أنفع أو أفلح فى شىء ، حتى كـلامي لا يستحق الإصغاء إليه من أحد . يكـفى أنى عجوز ، فكيف وقد فقدت أمه العجـوز التى طالما دارت عنى عجزى وأخذت بيـدى . إنه واثق أن تجارتى خسارة فى خسارة . فأنا لا أفرّق بين قماش وقماش وإذا ميزّت مرة فإنى لا أتقاضى قرشاً مما أبيعه ، بالدين . هكـذا يقول من وراء نظاريتيه الطبيّتين ، بينما تداهن امـرأته لى بأنى الخيـر والبركة . . ولا يعـرف هذا النابغة الذى يعيش على البنك ، أنه خير لبنى آدم أن ينام دائناً على أن ينام مديناً .

وهو الذى لم يعترف لا من قبل ولا من بعد ، بحق أو دين لى ولأمه عليه . وكانت النقود التى أخذها على كثرتها ، أقل دين فى عنقه .

وحين عرف نيتى على الزواج ، لم يجد ما يقوله سوى ابتسامة هزء . ولكأنه هو الذى سيقوم بتزويجى . وقـد نصحنى بعدئذ أن أفكّر فى حسن الختام . فـأجبته أن زواجى هو حسن الختـام ، وكنت جاداً فلن أتزوج مرة أخرى بعد هذه المرة . فـابتأس لما سمعه وسـرح بناظريه بعيداً . والله يعلم بماذا حدّثه شيطانه حينئذ .

أمـا الأبنة الكبيـرة المتزوجة ، صـورة أمـها ، فقد سـألتنى عنها . . عن التى سأتزوجهـا . ولم أعرف بماذا أجيبهـا فطمأنتنى أنى حرّ ، والذى يريحنى يريحها .

* * *

لئن فكّر الحاج واستغرقه التفكير حتّى أخذ لُبّه ، وامتلك عليه مشاعره فإنه لدهشته لم يفكّر بأحداهن على وجه التعيين . لقد لام نفسه لوماً شديداً . فكيف يفكّر بالزواج ولا « يضع عـينه » على واحدة منهـن زوجة له . هل ستهبط عليه جنيّة فى ليلة مقمـرة لتقترن به . هل ستطلع حورية من البحر

ذات فجر أزرق ليزف نفسه إليها . حتى النسوة والزبونات لم تُلمحّ إحداهن بأن لديها عروساً له ، رغم أحاديث الزواج والزيجات التى يتداولنها أمامه . ولم تسعفه الجرأة وهو المهيب أمامهن. ، ليفاتح إحداهن بالذى ينتويه ، سائلاً النصح والمشورة . فمن يدريه ما العاقبة . قد ينقطعن عن زيارة الدكان ، بعد أن تتغيّر صورته فى أذهانهن . وقد تبدى له فى حومة هذا البلبال ، أن الشخص الذى قد ينهض لإضاءة دربه والأخذ بيده ، هو الحاجّة ، الجوهرة نفسها ولا أحد سواها فهى من يعرف خير المعرفة من تصلح له . أجلٍ هى وحدها من تعرف ناساً ونساء وبنات وعائلات بلا عدد وتعرف كيف تُوصى من يقع عليها الاختيار ، بالعناية به . فلا تجعل البيضة المسلوقة سابحة فى السائل الأبيض . وتضبط فنجان القهوة له ، وتضبط ساعته ، وتُحسن فرك ظهره ، وتلميع حذائه ، ولا تعدّ النقود جميعها فى محفظته ولاتسكب له الشاى فى كأس كبيرة ، ولا تنام قبله ولا تصحو بعده وتوافقه الرأى على ما يقول حتى يضيق ذرعاً بالموافقة . فيسألها أن تبوح برأيها لتنقضٍ كل ما قاله ، وهى التى تتصدّق على الفقراء فى السر ، فهو يؤمن أن الله يُطعم الفقراء ، ولن يغضب الحاج إذا ما عرف بأمر الصدقة التى جرت دون علمه .

أجل ، هى وحدها بين الخَلق جميعهم من تعرف التى تصلح له ، وخاصة فى هذا العمر ، فمن يسعى بأقدامه وبظلفه إلى العنوان الخطأ ، إلى النكد والخلاف ، لسوف يشاورها فى الأمر ، ولا يستأذنها فيه . فهى لن تعترض . لن تعترض . وما الذى يحملها فى الأصل على الاعتراض . هكذا أخذته أقدامه لأول مرة ، صبيحة يوم جمعة شتوى ، إلى المقبرة ، إلى مثواها ، وبعد عشرة شهور على اليوم الكسيف الذى أودعها فيه هناك .

ما الذى حدث له يومها ، فى ذلك الموقف . . لا أحد يعلم سوى الحاج نفسه . . أما حارس المقبرة فهو الذى تكفّل بإيقاظه ساعة الغروب ،

وجـاهد فى إعـادته إلى البيت ، حـيث لازم الفـراشِ من أثر الحُـمّى التى افترست بدنه الواهن . وفيما كان الأعياء يُضعفه ، ويقعده عن الحركة أكثر فأكثر يـوماً عن يوم ، فقد كانت عيناه تتـوامضان بما يشبه الرضا والـبهجة التى يشيعها الاكتشاف .

اكتشاف من سيتخذها زوجة له . وقد ظلّت عيناه الغائرتان تتـوامضان بالبهـجة ذاتـها ، حتى أغمضهما بعد أيام ، هانئاً راضياً .

العـودة إلـى المـاء

إلـى سـعيد الـكـفـراوى

لما تكرّر سمـاعهـا لأصوات مجـهولة صادرة عن الجـوار بعد مـغيب الشمس ، فقد اشتكت لأمهـا مما تسمع ، وهذه أحاطت الأب بالذى قالته البنت . غيـر أن أحداً من العائلة لم يكتـرث . فأمور كهـذه تحدث ، ولا تستوقف أحداً . حتى أن متاعب صحية عارضة ، تنال من الصغير أو الكبير ، لا تثيـر قلقاً خاصاً أو اهتـماماً جـدياً . فما هو أدعى للاهتمـام ، أن تجرى الحياة فى مجراها ، وأن يجد الجميع قوت يومهم دون التماس عون أحد . ولو كانت هناك أصوات غريبة أو غير غريـبة ، لكان سمعها الأب والأم والشقيق الذى يصغرها بعام ، وبقـية الصغار . والحال أن أحداً لم تبلغ مـسامعه أية أصوات ، رغم تكرار السهر ليلاً لرصد السكون المخيمّ .

« إنها تنبعث من داخلها » ، قالت الأم ، وبدا التفـسير منطقياً ، فما دام أنه ليست هناك أصوات تنبعث من الخـارج فلابد من مصدر آخر . ولما كانت أبنتهم ذات الخـمسة عشر عامـاً التى توقفت عن الذهاب إلى المدرسة دون سبب يُذكر (إلاّ إذا كان بُعـد المدرسة عن البيت مسافة كيلو متـر سبباً كافياً) والتى تتـمتع بمسحة جمال ريفيـة ، .. لما كانت هى الوحيدة التى تأتيها الأصـوات ، فالمنطق يقضى بأن مصـدر الأصوات من داخلها . على أن هذا التفسيـر إذا أطفأ هواجس الأب ، فإنه آثار لديه حاجتـه إلى تفسير إضافي : كيف تنبـعث الأصوات داخل النفس وما دليل انبعـاثها ؟ كيف ؟ الحق وحده يعلم ، أما الدليل تقول الأم وهذه ليست متقدّمة في السن ، إذ هى فى أول أربعـيناتهـا وإن بدت أكبـر بعـشر سـنوات ، الدليل أن البنت

سمـعت الأصوات . فلو لـم تكن هناك أصوات أكـانت سمـعتهـا ؟ ولما حذّرها زوجها وهو فى آخر أربعيناته وينفق نصف راتبه التقاعدى فى إضفاء تحسينات على البيت ، ويتطلّع عبـثاً لتحسين أحواله ، لما حذرها من الزلل والشطط بتذكيرها بالنشأة الصـالحة والعقل الراجح للبنت ، فإن الزوجة لم تُلقِ بالاً لما سمعت ، واعتبرته غـير ذى موضوع . فالمؤمن العاقل ليس فى حرز حريز من مصادفة أشياء غريبـة ، والفرق أن إيمانه لا يهتز متى صادفته بعض الغرائب .

وكيف لنا إنقاذ البنت مما هى فيه ؟

أجابته :

– بأن نُسكت الأصوات .

هنا تدخّلت البنت التى كـانت تقتـعد مرتفـعاً خـشبيـاً هو من بعض الأثاث العشوائى فى البيت المتـواضع وتقدّمت قائلة : « بأن نترك اليت إلى بيت آخر » . وهنا تضاعفت شكوكه واشتد ضيقه فحمل نفسه على البحث عن حلّ .

ليست صـغيـرة . ربما أصغر قلـيلاً من سنّ الزواج ، لكنهـا لم تعد صغيرة . إنهـا أكبر أخواتها وكانت أكـثرهم اجتهاداً في مدرسـتها ، وهى عـون لأمهـا ، ونحن لم نسكن إلاّ هذا البـيت الذى وُلدت فيـه ، والذى يستـرنا ، وفى صغـرها لـم ترهبها البـركة المجاورة . بـل كانت تمضى جُلّ أوقاتها تلعب فى الحارة ، ولـم يحدث ، أن ذهبت بعيداً في الماء .

على أن الأب لم يوافق أن تعرض الإبنة على طبيب ، حـتى لا يتهدد مستقبل البنت . فلو أنهما فعلا لدارت الأقاويل حول سبب الذهاب لطبيب . وما أسرع تصديق الناس لما يرغبون تصديقه من مصائب لم تقع .

أية أصوات كانت تتناهى إلى مسامعـها ؟ صوت نحيل ملحاح يناديها باسمها . صوت لا يسعها إدراك صاحبه أو تمييز ما إذا كان صوتاً لرجل أو امرأة أو طفل . على أنها تألف بصورة ما الصـوت المجهول وصاحبه . إلاّ أن تسارع الصوت وإلحاحه ثم انقلابه إلى نبـرٍ مجروح وعميق القرار ، كان يثير لديها الشجن قبل أن يتسبب في فـزعها . وقد حدث أن فتحت النافذة فإذا الصوت يتضح ويتقدّم كروح حيّـة تقترب وتسرى فى جسمها . وبما أن الصوت ينادى باسمها ، فقد تأكد لـها بالحدس ، أن أحداً سواها لن يسمعه . . فلن تبث شكواها لأحد ، ووطّنت نفسهـا على الصبر الكظيم إلى أن تكبر : حـين أكبـر فلسـوف أعمـد إلى حـلّ مـشـكلاتى جـمـيـعـاً ولـن أسـمع الصـوت بعدئذ .ـ

وحين طمأنها من يتخذ هيئة شـيخ ، بأنها ستكفّ عن سماع الصوت إذا واظبت على تلاوة بعض الأدعـية والعـبارات المخـتلطة ، فقـد ساورها للحظات خوف غـامض من انقطاع الصوت . وقد لامت نفســها على هذا التـفكير الأخـرق . لكنها لم تخـطىء إذ توقعت فـشل الرجل فى إسكات الصوت .

« دعونا نترك البيت » .

ظلّت تردد هذه العبارة ، بأمل وحرقة . وقـد فكّر الأب بعد أن أعيته الحيلة بتلبية طلبها ، وبالطريقة المعتادة التى يتم بها حلّ مشكلات البنات فى سنِّها : بتزويجها لأول من يطرق الباب . وقد فاتح زوجته بأن تجد بمعرفتها ، طَريقة لتزويـج البنت ، ما دام أنهم عاجزون عن الإنتـقال إلى بيت آخر . علاوة على أن العلة فى البنت لا فى البيت .

وفيما كانت الأم تُحدّث جاراتها بخصال ابنتها التى تقوم بكل واجبات البيت ، إذا بالبنت تنبىء الحـاضرات بأنها ما زالت صغـيرة وترغب العودة

إلى المدرسة . حتى أنها أنبأت أمها بعـد خروج الجارات وبنبرة حيادية بأنها لم تعد تسمع أصواتاً فى الليل ، وأنه لا حاجـة بهم لترك البيت . سمعت الأم ذلك وأجهشت من الفرح وهى تستعيد ابنتها ، وسارعت لطمأنة الزوج الذى لعن البنات وأيامهن . .

وإن هى إلاّ . . أيام معدودات ، حتّى تأخرت البنت فى العـودة ، وقد تبيّن لهم أنها لم تزر الجيران كما قالت ، وبهذا استقر فى قناعتهم أنها حقّقت ما رواد نفسها ، هجرت البيت رغم شفائها من الأصوات ، وخلافاً لما طمأنت فيه أمها .

هجرت البيت ، إلى أين ؟

حام السؤال تحت السقف المنخفض للبيت ، حـومة طائر أسود تُسمّيه الأمـثال : غُـراب البيَنْ . ظلّ يرفـرف ويصطفق بأجنحـته غـير المرئيـة ، ويخطف القلوب والأنفاس . وفيـما كان الشقيق الذى يصـغرها بعام يذرع الشوارع والبيوت بحـثاً عنهـا ، كانت الأم تنـدفع المرة تلو الأخرى نحـو النافذة الشرقية التمـاساً لسماع صوت ابنتها ، طفلتها الحبيبـة ذات الخمسة عشر ربيعاً والتى عـقدت العزم على تزويجهـا . ثم سعياً لسـماع الصوت إياه الذى كان يصل إلى مسامع ابنتها ، لعلّ الصوت ينبئها بخبرٍ عنها . لكنها سمعت فقط النبض الرتيب والمتكرّر للعتمة والتموجات الخافتة لسطح البركة . .

فى صبيحة اليوم التالى مع بدء دوام الموظفين العموميين ومنهم الأطباء ، عـاين طبيـب شرعى جثة البنت وسرعـان ما دوّن فى تقريره المقتضب، أنها « قضت غـرقاً ، وأن ١٤ ساعة مـضت على مفارقـتها الحيـاة ، ولم تثبت على الجثة أية علامات أو دلائل على عنفٍ أو ضغط جسدى ، تعرّضت له قبل أو فى أثناء اختناقها تحت الماء . . . » .

وحين نشط المحققون فى الاستماع لإفادات الأهل والجيران ، فقد أفاد

أحد الساكنين على مـبعدة من البيت ، وهو رجل مُسن ما زال يتـمتع بقوة إبصار طبيعيـة ، بأنه لَحَظَ فتاة تتجه منفردة وبخطوات متعـجّلة بعد مغيب شمس أمس إلى البركة ، ولم يثر الأمر ارتيابه ولا استوقفه ، إذ أن مشهداً كهذا مألوف فى الحى .

وقد هتفت الأم من خلال نشيجها : كان عليكم إسكات الأصوات .فسارع الأب تفاديـاً لإثارة اللغط ، لإسكاتها زاجـراً ، فيـما أدرك فى دخيـلته أن الصوت كان ينبعث من الماء . وقد حار بأية وسيلة يسعه الإنتقام من البركة القاتلة ، خاصة وأن روح البنت تخفق تحت السطح ولعلها اختلطت بالماء . ولسـوف تدوم حيـرته طويلاً . ومع الحيـرة شعـور دفين متطامن بأنـه كان للبنت العنيدة ما أرادت .

الصديقان

الكهل الخمسينى ، والكهل السبعينى الذى يتقدّم بثقة إلى الشيخوخة ، يتصاحبان أكثر ما يتصاحبان فى المقهى الشرقية ، التى تضج بالرواد والأصوات .

يأتيان المكان تباعاً فى ساعات العصر ، ويمكثان فيه معاً ، ردحاً من الوقت ، أطول من الوقت الذى يقضيه بعض أفراد الحلقات الأخرى . وفيما ينهمك هؤلاء الأخيرون ، فى ألعاب التسلية التقليدية ، ويتبادلون أحاديث متشعّبة يتخللها تصايح وابتسام وتشاتم وقهقهات ، فإن لثنائى الكهولة شأن مختلف . إنهما يحملان صحفاً ومظاريف مغلقة وأوراقاً بالكاد يفتحها ويقلبها أحد منهما ، ولكنهما يحرصان على تأبطها ، وبسطها على الطاولة الصغيرة بينهما ، أو يفردان لها كرسياً من كراسى المقهى الواطئة . كصياد يحمل معه بندقيته أينما ذهب .. حتى إلى البحر .

الخمسينى أشيب الرأس ، محنى اظهر ، ينوء بأشجان حديثة العهد ، لا تمنعه من التبسّم القليل ، بين ساعة وأخرى ، مع الإكثار من حركة اليدين. أما السبعينى فتحتفظ عيناه بلمعان دائم (ليس لمعان نظارته الطبيّة) ، ويحتفظ قوامه بهندام متناسق ، وإذ يحاول أن يبسط حديثاً . فإن الآخر يُسكته بالفهم السريع ، بالموافقة الفورية ، أو بإغلاق الحلقة : بإكمال ما بدأ به صاحبه .

ليس فى لقاءاتهما اليومية ، من حماسة بادية . هناك الإرتياح التام والقبول المتبادل لفكرة اللقاء ، ولإبداء الإهتمام اللازم بضمان اللقاء . وهناك رتابة ظاهرة لا ذنب لأحدٍ بها ، إنه ذنب الظروف أو السن أو

الصحة ، أو (لماذا نذهب بعيداً . .) إنه ذنب الحياة ذاتها ، وقد انتهت إلى ماانتهت إليه .

وقد اعتاد رواد المقهى النظر إليهما كغريبين . واحتراماً لغربتهما فإن أحداً لا يخالطهما ، إلاّ بالتحية العابرة ، فيما يتبادلون الرهانات في ما بينهم بأن : هذا أرمني وذاك مغربي ، أو أن الأول أفغاني والثاني كردي ، أو أن وظيفتهما التنصت وكتابة التقارير ، أو : دعك منهما أنهما مليونيران بخيلان . وكان بعض تلك الأوقاويل يتناهى إلى مسامعهما ، فيتبادلان حينها الابتسامات الهازئة بعد التفاتة سريعة إلى مصدر الصوت ، ويتوافقان على أن سوء الظن قديم . . وليس جديداً .

لقد لاحظتهما ، وكنتُ أنضممت مؤخراً إلى المقهى . فهما يتجاوران كالتوأم ، دون أن يتقاربا في السن أو يتشابها في المظهر ، لكنهما بالتأكيد يسبحان في مياه واحدة ، كغريبين قادهما مصير مشترك للحلول معاً على أرض غريبة ، ثم انعقدت بينهما صلة قوية خفية ، انقطعا بها عن ماضي كل منهما . إن حاجة أكيدة تشدّهما ، وقد جمعتهما هذه المرة ، كما في مئات مرات سابقة ، على ما علمت .

وقد انقطعتُ بدوري عن المكان أياماً وأسابيع ، ثم عدتُ إليه ، فإذا بهما أكثر ثباتاً من أي شيء وأي أحد في المقهى ، ويشكلان معاً بقعة من هدوء ودِعَة وسط لُججٍ من فوضى وصخب .

وإذا عرفت في قصير حياتي وتجاربي أن الأزواج يتماثلون مع تقدّمهم في السن ، فقد بدا الرجلان أكثر تماثلاً من ذلك ، كل منهما يراقب صاحبه على مبعدة وبحرص شديد يضاهي الحنان ، لكن أحداً لا يخطىء أبداً بكلمة أو سلوك ، فلا يثير حفيظة الآخر أو حتى انفعاله .

وإذ يصحّ الاستنتاج أنهما ينتظران شيئاً ما ، أو أحداً غائباً ، أو فرصة

معلّقة أو مفاجأة مبهمة ، فمن بوسعه الإدعاء أنه لايترقّب في حياته شيئاً مثل هذا ؟ ولو كان الأمر غير مألوف ، أو استثنائياً لبدا عليهما قلق وحنق ، خلافاً لحال الهدوء والسكينة الذى يشملهما ، فيما يرسلان نظرات سارحة تشى بالوداع إلى حركة الشارع أمامهما على المقهى الرصيفى ، ويتبادلان النظرات بين مناسبة وأخرى ، ويتبادلان معها الموافقة على صحة الملاحظة ، التى لا يتطلّب إبداؤها سوى بضع كلمات . وقد لا يتعلّق الأمر ، أمر تبادل النظرات ، بملاحظة ما ، بل بحالة انكسار ، بغيمة معتمة تهبط على أحدهما ، خاصة الخمسينى ، فيسارع صاحبه إلى مواساته ومداعبته ، بقليل من التساؤلات وإشارات اليد ، فيخرج هذا مما هو فيه ، معتذراً ، كأنما ينفض فى الحال غباراً أسود علق بكتفيه أو فمه .

لقد لاحظتهما كثيراً جداً ، وتلك عادة توطّنت لدىّ بكل أسف . ما أن يتكلّم أحدهما ، حتى يغشاه الألم ، وكأنما بذل جهداً خارقاً ، يؤذى برنامجه الطبى ، يلحظ صاحبه عليه ذلك ، فيسارع إلى تهدئته وثنيه عن الكلام (فالمسألة واضحة لا يعوزها مزيد شرح وإفاضة) . وفى الأثناء تنتقل العدوى إلى صاحبه ، يحاول الخروج عن صمته فيقع بدوره تحت ضغط الألم ، وربما تحت طائلة الندم .

ليس فى مخايل أحدهما ما ينبىء بوقوعه فى مرض ، ولا بعصاب ما ، كما يستسهل البعض تصوير الأمور . فهما فى غاية الاتزان والانتباه ، وعلى دماثة تجعلهما يتفهمان كل خطأ يحدث حولهما . كل ما فى الأمر ، أنهما يجتمعان على تواطؤ عقلى وعاطفى ، ويتفاهم غريزى ، حتى ليخيّل للرائى أنهما إذا ماحدث واندفعا فى الكلام ، فلسوف يفقدان صداقتهما . وعليه فلا بديل عن مواصلة اللقاء كل يوم والتجاور معاً بدأب وانتظام ، لثلاث أو أربع ساعات (تغرب خلالها الشمس ، فلا تسقط عتمتها فى صدر أحدهما ، وهو متوحد متفرد) وقد تحصّنا بصمت شاسع مديد ،

كأعزل يتحصّن بمعطفه السميك ، فى معركة . وربما لأن سوء الفهم يزداد بين البشر ، كلما زادت وتيرة الكلام والحوار . وحين تحين ساعة المغادرة ، زهاء التاسعة ، تتهلل ملامح كل منهما ، وكأن واحدهما قد أنجز ما عاهد نفسه عليه ، ثم يسارعان إلى الافتراق بلهفٍ وحماس ، وكأنهما ويا للغرابة ، يتخلّصان من بعضهما بعضاً .

الليلة الأولى

قبل غروب يوم العطلة الأسبوعية عزمت أمرى ، واتجهت إلى حى شعبى قرب منطقة سكناى ، اشتريت هناك ، علبة عصير من صاحب دكّان ، وسألته :

- كيف أحصل على قطة ؟

بُهِـم الرجل من فوره وضحك ، وانتظر أن أضحك بدورى ، كما لو أننا نتبَادل القاء النكات . ولما وجدنى واجماً محتشماً ، وعلى قليل من الابتسام ، فقد أجاب وهو يكتم ضحكته .

- لا نبيع القطط .

- أعرف ، طبعاً ، لا تبيعون ، إنى أسأل فقط : من أين وكيف أحصل على قطة ؟

لم تفارقه الدهشة . جعل يتفرّس فى ملامحى (كان يصغرنى بنحو عشر سنين ، فى حوالى الثلاثين) . ويسعى للتأكد إنى كنت جاداً أم هازلاً ، بل ما إذا كنت على سوية عقلية سليمة . حتى إذا قلت :

- . . . لابنى الصغير ، ابنى يريد قطة .

فإن مشاعره انفرجت وهدأت .

- إنك لست من هذا الحى .

- لا ، إنى أسكن فى المنطقة المجاورة .

- ماذا أقول لك ؟ الشوارع مليئة بالقطط . لك أن تأخذ منها ما تشاء

لكنه لم يتوقف عند ملاحظته هذه ، فقد اندفع إلى باب محله الكائن على منعطف شارع داخلى ، ونادى على أول صبى عابـر ، فاستجاب هذا للنداء (أصحاب الدكاكين يتمتعون بالاحترام) .

- أين أبوك ؟

- في البيت .

- قل له إنى أسلّم عليه .

استدار الصبى يتأهب للمغادرة ، فاستوقفه الرجل .

- كم قطة عندكم ؟

أجاب الصبى مدهوشاً ، وهو يرمقنى بوَجَل .

- بقيت قطتان .

- أعطِ الأستاذ إحداهما ، على أن لا تكون مريضة .

مشيت مع الصبى عبر زقـاق طويل . صادفتُ بالفعل عدداً غير قليل من قطط بمخـتلف الأحجام ، قلـيلٌ منها تعبـر مسـرعة ، وأكثـرها تمشى ساهمـة متثاقلة كـما يمشى الناس ، لم أفكّر بالقبض على أحـداها ولافعل الصبي الذى اكتفى بسؤالى .

- ماذا ستفعل بالقطة ؟

- .. ماذا تظن أنى فاعل ؟

وأخبرته أنى أريد قطة لأبـنى . وإنى لم أعرف كيف أعثر عليـهما . وسألنى عن عمر ابنى ؛ وأجبتـه : خمس سنوات ، فقال وهو يهزّ رأسه :

لهذا السبب .

- أى سبب ؟

- لأنه صغير .

- نعم أنه صغير ،ولم يدخل المدرسة بعد .

انتظرت على باب بيتهم . وكان دَخَلَ إلى بيته دون دعوتى للدخول ، ولا طلب منى الإنتظار ، إنه أقل خبرة وأكثر خجلاً من أن يفعل ذلك . إستأخرته . وسمعت صوتاً منفردا يرتفع من داخل البيت . ولاحظت المارة من رجال ونساء يرمقوننى بنظرات فضولية ، إذ قلّما يقف أحدٌ على باب بيت أحد ، هناك . خرج لى أبوه . إنه بعمرى تقريباً ، لكنه أكثر امتلاء ، ورأسه يميل إلى الصَلَع . صافحنى ببشاشة ودعانى للدخول . اعتذرت شاكراً ممتناً قائلاً أنى لا أريد أن أثقل عليه ؛ وكل الذى أريد هو الحصول على قطة زائدة عن الحاجة . ضحك الرجل من قلبه ، ضحكة مكتومة متحشرجة : تكرم . قطتان إن شئت لا واحدة . وسألنى : كيف سأحملها . واستغربت مع نفسى كيف لم أحسب حساب ذلك . وقال إنه سيتدبّر الأمر . واستأذننى فى الدخول . غاب لبعض الوقت قبل أن يعود مع إبنه الذى كان يتأبّط كرتونه صغيرة . نصحنى الأب أن أحاذر عليها من الإختناق ، ثم طلب إلى ابنه أن يحمل العلبة ويوصلها لى . شكرت الرجل بحرارة بعد أن عرّفته باسمى . عُدنا من الزقاق إياه . وأنبأنى الصبى إنه كان يحب القطط فى سن الخامسة ، أما الآن ، فلا . ثم حدّثنى عن الأمراض التى قد تسببها القطط ، كما تعلّم ذلك فى المدرسة . حين وصلت إلى سيارتى القديمة فتحت بحذر طرف العلبة الكرتونية . . وإذا بالقطة ترسل لى نظرات ثابتة مفعمة بالشك والرجاء وبدت لى أصغر مما توقعت . وضعت العلبة وبداخلها الحيوان الضعيف ، برفق على المقعد الأمامى

المجاور . فى الطريق لم يفارقنى مشهد نظراتها ، وانتابنى شعورٌ بأنى اختطفتها . وصلت وفتحت العلبة بحذر ولهفة : إنها ما زالت حيّة تتململ ، سمعت بوضوح لهاث أنفاسها ولاحظت بطنها الضامر يرتفع وينخفض . فى البيت سارعت بإخراجها : إنها ساخنة لدنة ومن ذلك الصنف المألوف الذى يجمع بين بياض وسواد الفرو . وكنت توقعتها بيضاء على شقرة . لم يكدّرنى ذلك .

التقت نظراتنا - بعدما قفزت برشاقة إلى أرضية الغرفة - لقاء التعارف والفضول هذه المرة . كانت عيناها سوداوين لامعتين ، ذات بريق مائى نفّاذ . ونحيفة كانت وخفيفة ، وفى مشيتها شىء من التواء ، كأيّة قطة فقيرة من قطط بلادنا . وقد سارعت بتقديم الماء وبقايا الأطعمة لها ، فأخذت تستكين شيئاً فشيئاً . . واندفعت بعدئذ كأى ضيف مُرحَّب به للتجوال داخل البيت وهى تُصدر مواء متقطعاً ، لعلها فوجئت بضيق مساحة البيت ولم تصادف أحداً فانكفأت راجعة ، وقد بدت عليها مخايل الفتور ، وعمدت إلى تسلّق الجدران وخدش الكراسى وكل ماتقع عليه مخالبها الطرية ، ثم اقتعدت زاوية غير قريبة منى ، لكأنها تذكّرنى بأنها القطة الوافدة المستوحشة ، وإنى صاحب البيت الذى لا تعرفه . ومهما يكن فقد سرّنى حال التسليم الذى بدا عليها . وكانت قد استبدت بى فى ذلك اليوم الربيعى الرائق ، رغبة غلابة وطاغية فى امتلاك قطة ، أتبادل معها النظرات . ولم تكن هذه الرغبة قد ساورتنى من قبل . وإنى لأجهل حقاً أى تفسير لذلك ، وليس هناك ما يدفعنى للعثور على تفسير فورى والإعتراف به . أستذكر فقط أن القطط ملأت العالم الأثير لطفولتى البعيدة ولبيت أهلى (أين هم الآن ؟) وأنى لم أكن متعلّقاً بها ذلك التعلّق ، ولا كنت كارهاً لها ، وإن آثرتها على بقية الحيوانات المنزلية . ولا أعرف الآن - كغيرى ممن لم يقتنوا قطة من قبل سواء بلدية أو فارسية أو سيامية - لا أعرف ما الذى بوسعى فعله للتعزية عنها ولتسريتى ، كيف أتعهّدها بالرعاية ،

وكيف أتفادى المشكلات التي قد تتسبب بها . ولقد قضيت ليلتى تلك ، ليلتى الأولى بوجودها ، تناولنا وجبة العشاء معاً : لكل طعامه وزاويته . ثم ألقيت إليها بأمشاط وصحف وجوارب مهملة لتعبث بها وقد فعلت ، وأكثر ما أثار خشيتى أن تموء فجأة بالبكاء ، لكنها لحسن الحظ لم تفعل . ثم تفرجنا على التلفزيون (كان مضى وقت البرنامج الشهير : توم وجيرى) وقضت وقتاً غير قليل وهى تتقدم من الجهاز وتبتعد عنه ، حتى أدركها التعب فنامت قبلى ، نومة طفل مستكين . وكنت قررت إرجاء أى تفكير أو انشغال ، فى حالها أو حالى معا إلى الغد ، مكتفياً بما بذلته من جهد ، وراضياً بما حققته من إنجاز فى ذلك اليوم .

ومن الواضح أنه لم يكن لى ابن فى الخامسة ولا زوجة ، وقد لجأت لقول ما قلته لهم درءاً للتقوّلات وتسهيلاً للأمور .

تعالَ أُريكَ شيئاً

ليس الدخول إلى القصة أهون سبيلاً من الدخول إلى البيت . ففى خريف ١٩٩٣ منّيت النفس باستقبال زملاء لى فى بيتنا الكائن فى المدينة التى عرفت فى ذلك الخريف بـ « أريحا أولاً » .

إنه - بيتنا - على مقربة من النهر : سبعة أو ثمانية كيلومترات تقطعها السيارة بقليل من المبالغة أو السرعة قبل أن تنطفىء سيجارة فى يد حاملها . وقد تخلّصت من دعوتهم بالكتمان ، وبالرهان على إدراكهم الثاقب لتعقيد الأوضاع ، فالحظر على عودة الجميع (أنا أحدهم) لم يُمسّ . على أن تلك ليست هى القصة . فلم أكن الوحيد الذى حِيل بينه وبين العودة إلى بيته الذى فارقه مكرهاً صيف ١٩٦٧ .

بعد ثلاث سنوات على وعد الخريف ، وحين أشرت لسائق شاب فى الساحة الرئيسية لمركز المدينة بالتوجه إلى « كتف الواد » وقرب متنزه الروضة ، ثم حين سألته إن كان على معرفة ببيتنا المقام هناك منذ سنة ١٩٥١ فإنه تمتم ولم يجب ، وعلى غرار السائقين المحترفين الذين تقتصر وظيفتهم على سياقة مركباتهم دون الانسياق للإجابة على الأسئلة الزائدة للركاب ، ولما أبلغته بعودتى بعد غياب ٢٩ سنة ، فإن شيئاً لم يبدر عنه سوى مضاعفته لسرعة السيارة . ومع وصولى السريع إلى الحى اختلط علىّ ما رأيته ، وبدوت كمن أخفق فى الإجابة على السؤال الأول ، ولم يُسعفنى بكلمة حتى احتججت قائلاً : إن البيت يجب أن يكون هنا. فأشار لى وقد ازداد إدراكه لغرابة أطوارى أن ألجأ إلى صاحب دكان يقف أمامها . ترجّلت وسألته ، فأشار هذا بتثاقل إلى الناحية اليمنى المجاورة . . فسارعت إلى نزع حقيبتى من الصندوق الخلفى للسيارة ، متمنياً فى سرّى

أن يظل غطاء الصندوق مرفوعاً ومستعصياً على الإغـلاق عقاباً للسائق ، واندفعت إلى البيت لأتثبّت منه ومن وجود أبى وأمى فيه وقد أنبأنى أبى أن الدكانه المجاورة افتتحها صاحبها قبل اثنتى عشرة سنة وأنه يصغرنى بخمس أو ست سنوات . (لقد تجاوزت الثلاثين . . والأربعين ولم أتجاوز الخمسين بعد) . أمـا السائق الذى أقلّنى وكمن يحمل أثاثاً مـجهول الصاحـب فقد عرفتُ فى سحنتـه ولهجته ملامح ونبـرة أبناء المدينة ، وكنا نحن ساكنوها نعرف بعضنا فرداً فرداً ولو بالتلميح أو بالتقريب إلى أب أو شقيق أو قريب . ومن الواضح أن هذه ليست هى القصـة . فقد أقمنا فى الطابق الأول أربع سنوات هى السنوات الأولى للمدرسة حيث لم أتبـيّن من أمرى شيئاً . ولما أنشأ أبى الموظّف ويجهـد جهيد الطابق الثانى فقـد انتقلنا إليه وتركنا الأول لمستأجرين ، ودامت أقـامتنا فيه سبع سنوات كانت أكثر مـسرّة من الإقامة الأولى . إذ شبّ الفـتى وظلّ يدور فى خلده أن الإرتفاع فى السكـن إمارةٌ عن يسر ورفعة . وقلما ارتفعت بيـوت أريحا فى آخر الخمسينات عن طابقٍ . أما بيتنا فإلى ارتفاعه وبياض مظهره ، فقد كان مشيداً وسط بستان يَغُصّ بأشجـار الحمضيات والأسكـدنيا والجوافة والبـباى (شجر مثـمر ذو أصل هندى) وبأشجار الزنزلخـت والحور والسرو وبنبتة هائلة الامـتداد لم أعرف لها إسمـاً تعطى الليف الخشن الذى نستـخدمه فى الاستحـمام والذى طالما أدمى بدنى الضعيف .

إنها تحاذى السور على الجهات الأربع وتُشكّل صـفوفاً شجرية عالية ، ولطالما اسـتهوتنـى تلك الأشجار الـطويلة واستـحوذت على خيـالى الذى صورّها رجـالاً مَرَدة واقفين على هيئـة شجر . إن مشـهدها خلاب ومثـير للمشاعر ، فهى تتمايل حقاً وتصـدر صفيراً لكنها تظلّ صامدة أمام عصف الرياح ، وتجتـذب إليها أسـراباً من العصافـير فى الفجـر وعند الغروب ، وتصطدم بها عند رؤوسنا طائراتنا الـورقية وتعلق بها . إن مشـهد طائراتنا الحبيبة المنكسرة هذه ماثل فى النفس بأعمق من مشاهد طائرات الفانتوم التى

أرسلها إلينا الناجون من المحرقة . ولم يكن بين رفاق المدرسة من يمتلك في بستانهم أشجاراً بوفرة واستطالة أشجار بستاننا . وقد سحرني النمو المطّرد حتى تخيّلت أن نموّها لن يتوقف أبداً مقارنة بي إذ كنت أستطيل ببطء رغم أننا من عمر واحد تقريباً .

مع عودتي لاهثاً ومتوجساً إلى البيت ، هالني كم أنه تغيّر بعدما صُدمت بحيرتي في تحديد موقعه بدقة . فقد كبرت الأشجار وهاجت ، فإذا هي أعلى من الطابق الثاني وتحجبه عن الناظرين البوابة الحديدية السوداء الثقيلة خسرت ما كان لها من ضخامة ومهابة . والدرجات لم تعد تتسع إلا لمرور شخص وقد خبرتها فسيحة عريضة . بعد الضغط على الجرس أو الطرق على الباب أو كليهما فتح لي هاتفاً : هذا أنت ، ونادى على أمي بهناء من كسب رهاناً وثبتت نبوءته شعرت بحال أقرب للدوار جعلني ذاهلاً ذهول من يتحول فجأة إلى وديعة يلتقطها أصحابها ، وذهول من يستشعر الحاجة الباقية إلى حنان أصلي . لقد دخلت مدفوعاً بريح قوية من ورائي ، واستشعرت الحاجة لمن يأخذ بيدي ويدلّني على نفسي . شكرني أبي على مجيئي وحرصت أمي المريضة على إبداء الحيوية في بيتها وكما هو عهدها قبل مفارقتنا لها. هنا الصالون لقد جددناه . هذه البرندة هنا غرفتكم . هذه الغرفة الثانية . هنا غرفة الجلوس . هنا المطبخ أنت تعرفه . هنا ننام . هنا نشاهد التلفزيون . وفي أثناء تذكير أبي لي بما أعرفه لاحظت أغصاناً مورقة تتسلّل من قضبان النوافذ وقد بدا مشهدها وحشياً ، كحيوانات خرافية زاحفة تطرق النوافذ بأذرعها الطويلة ، ولكأننا نقيم في جوف غابة . دهشتي هذه أثارت استغراب أبي وحتى سخريته وهو الذي يألف الأشجار ألفته لأفراد العائلة ، بل إن ألفته للأشجار أطول عهداً وأشد رسوخاً وأكثر استدامة إذ تثبّت أبي والأشجار في مواقعهما ولم يتزحزحا . على أن هذه ليست هي القصة . إذ أن احتفاء أبي وأمي بي لم يكن مفاجئاً ولا محاولتهما اليائسة استعادتي ولا رنّة العتاب الخفي في

نبرتهما ، فهما يواجهان تقدّم العمر بجَلَد وكبرياء دون معونة أو سلوى من أحد . إنهما بصحة ليست سيئة رغم الأمراض ولا يوصفان بعجوزين ، على أن تنطبق عليهما عبارة أن مستقبلهما بات وراءهما . وبدا لي تلك الساعات أنى أماثلهما الموقف إياه . غير أنهما يضيقان بالبيت الفسيح . فأبي يكثر من حركته ، يذرع الممر والغرف دونما سبب ربما لملء الفراغ الذى يصدمه أينما اتجه . أما أمي فأكّدت لي غير مرّة أن البيت لا يفرغ من جيران طيبين تحبهم ، ولم أصادف أحداً منهم . وما كان بيتاً لنا للعائلة الكثيرة بات لهما فقط ، فقد تركنا البيت وراءنا وأنشأ كلٌ منا عائلة في الخارج ولم تتأتّ لأحدنا العودة . وزيارتى هذه استثنائية وعابرة . وقد عزَمت أمى على النهوض لإعداد وجبة غداء لى وكنت وصلتُ بعد الظهر ،ولم يثنها عن عزمها سوى قسمي لها أنى تناولت طعاماً فى نابلس قبل وصولى . ها أنا إذن ضيف على أهلى . وضيف فى بيتنا ، فلمَ لا أبتسم . . ولو لم أكن لتوقفت فى الغرفة الشرقية وتلَوْت عليهما أشواقى الحبيسة ، ولما اكتفيت بالفرجة على الركن الذى آوانى مع إخوتى والذى طالما سهرتُ ونمتُ فيه مع أشباحى . فقد بَدأت هناك ومنذئذ إقامتى فى الليل . ويروقنى اعتقاد أن ما تُفرّقه وتبدده النهارات تجمعه وتستردّه الليالى. لقد تغيّر الأثاث وتبدّلت الرائحة إذ طليت الحيطان بدهان زيتى مصفر يقاوم البلى . لم أر أبداً ما يدل على حياتى فى المكان الذى توقعته قديماً مفعماً بالظلال فإذا به بالغ الجدّة والنقاء ، طاردٌ للذكريات وكاتم للأصداء . وقد راعنى أن موقفى قد تباعد عن موقف أبى وأمى حيال المكان العائلى . خرجتُ وقد ضاقت أنفاسى إلى البرندة وطاب لى أنها ما زالت فسيحة مفتوحة على سماء زرقاء . أما الساحة الترابية المقابلة فقد ضاقت وعجبتُ كيف كانت تمتد تحت أقدامنا الصغيرة ، وتتسع لركض المسافات الطويلة . بينما اقترَبت البيوت التى عهدتُها بعيدة . ويا للمفارقة فإن اقترابها منى جعل مشهدها غريباً عنى . إن المسافات ، كذلك الإحجام تختلف لا شك

فی عینّی الـصغیـر عنها فی نظر الکبـیر . لکن التـعلیل العلمی لا یطفیء تساؤلاتی . فـإن امتـدت الأشجار وهاجت بما هی کـائنات حیـة ، فلماذا ینکمش البیت الـذی طالما زهوتُ باتـساعه وارتـفاعه وهو لیس بکائنٍ ولا بَـحیّ ، لماذا لم یحتفظ بحجمه وجرمه المعهودین . .

إنه حتیّ صـبیحة الخمـیس الرابع من حرب الأیام الستة الـتی امتدت لآلاف الأیام ولـم تتـوقف ، کان أشـخاص عـشرة ذکـوراً وإناثاً ، یملأون البیت بأجسامـهم وأنفاسهم وخبط أقدامهم وخـفق أرواحهم وکل ما یؤلف حیـاة عائلیة شـیّقـة ونشطة . فلما غادره الأبناء الثـمانیـة (الوالدان غادرا وسرعـان ما عادا قبل أن تهـدأ فوضی الحرب وکمن یسـارع لإصلاح خلل مُعیب) فقد اقتصرت السکنی فی البیت علیهـما ، فبدا صغیراً قلیلاً بعدما خلا من ساکنیه الکُثّر ولیس رحباً أو کبیراً قیاساً لقلة الساکنین . وقد خاب أملهمـا إذ لـم تلح علیّ مخـایل السعـادة أو الانفعال الإیجـابی أنا أول من یعود (زائراً) بـل إنی بدوت ساهماً منشـغل البال ، فـفی قلب المدینة فی الساحة التی یتواجه فیهـا عن بُعد مبنی البلدیة مع مرکز الشرطة ، لم آنس کثرة من الخلق کما کان علیه الحـال إذ رأیت آحاداً متفرّقین فقط . ولم تملأ رأسی أصوات المارة والبـاعة والزوار ولا المرکبـات . ولـم ألحظ ألواناً تنادی العین فی واجـهة المحـلات . لقد أوقف وافـرو البـرکات النمـو الطبیـعی وأنهکوا روحـها . ولقـد حسب أبی وله الحق ، أنی بعـدما فـارقت سنی الطفولة والیـفاعة ومـا یُدعی بشرخ الشباب ، فـقد بتُّ مشـدوداً إلی بیتی الخاص وعائـلتی الناشئة ولیس إلی البیت الأول . أجل ، له الحـق . فقد وددتُ المجیء مصحـوباً بامرأتی وأبنائی وأملتُ مصادفـة بعض إخوتی وأن أتلمّس آثارهم فی البیت الذی انبثقنا فیه وجَـمَعنا سقفه الرحیم ولـم یضمّنا بعده بیت ، وها أنا وبعدما غادرت مصحوباً بهم وبآلاف الخلق ممن حملهم ودفعهم ریحٌ أصـفر ومصـیر تاعس ، ها إنی أعـود کمن یغافلـهم ویقتنص مـغنمـاً خاصـاً به ، ولاصطدم علـی المداخل والطرقـات بجنود وجندیات

مختلطي الملامح ضجرين وفي عمر العشرينات ، يحرسون غياب من نزحوا ويسهرون على منع عودتهم . ولقد ذهبت بي الأفكار قريباً وبعيداً في حضرة أبي وأمي وإذا بالحنين يشتد بي ويضغط عليّ ، إلى أيامٍ قديمة ومدينة قديمة وبيت قديم ووطن قديم نعمنا فيه بالبقاء والبناء قبل اندفاعهم وقد ضاقت بهم - فلسطين - إلى القدس مروراً بيتنا الذي يحاذيه شارع طويل يمتد إلى نهر الأردن الذي بلغوه في اندفاعهم . وتلك هي المسألة ، لكن هذه ليست هي القصة . فقد دعاني أبي وقد استشعر كدري وضياع قلبي لأستذكر برفقته معالم الحي . ومع معرفتي أنه ينوء بالمشي ومع اعترافه بأنه لم يَطُف بالحي منذ العيد الكبير قبل ستة أشهر ، فقد بدا أشدّ لهفة مني إذ أراد كما يبدو أن يجدني ويستردني ويعيد تنظيم عاداتي ويجدّد صلتّه وجذوره هو في المكان ، مستقوياً بالألفة التي يشيعها رجوع الإبن (الأوسط) وعودة التسلسل العائلي إلى انتظامه ومراتبه . قلت له دعني أولاً أشقّ على البستان (اتفقده) نزلت خفيفاً ومشيت بين الأغصان التي تضرب الوجه وعلى تُربة رطبة إذ يحظى البستان بمياه سقي منتظمة تخلّف عدداً من الضفادع وكلاب الماء الزاحفة (الواحد بطول اصبع ، لا تؤذي ولا صوت لها ، ولم تكن تروق لنا نحن الصبيان وكنا نأنف من اللعب معها أو الحاق الأذى بها) وقد فوجئت بأشجار البرتقال تحمل حبات قليلة متناثرة من الثمر . واستغربتُ من أين كان يأتينا أبي بحصيلة وافرة منها حين يزورنا في عمّان . لعل موسم السنة فقير . لكن حبّات البوملي الداكنة الخضرة قبل النضوج ، وفيرة وثقيلة وهي أكبر بما لا يقاس من حبات البرتقال . لم أفكّر بقطفها الصحيح تهيبت . تلمستها فقط واستمعت بندواتها . ثم شققت طريقي نحو الزنزلخت . إنه يفرخ أشجاراً صغيرة لا حصر لها ، ولكأن كل شجرة تؤلف عائلة لها . ثم وقفت تحت نبتة الفتنة . إنها في الأصل نبتة ورد . لكن لها طول وقوام شجرة ، وتتفتّق عن زهرات صغيرة مخملية متفتّحة تجمع بين الأبيض والأصفر ، وبين الأبيض والأحمر .

وكلتاهما الصفراء والحمراء ترتفع ناهضة إلى الطابق الثانى .

أما الأسكدنيا فـهى التى تطرق النوافذ بأغصانها المتفـرّعة ولم تبدُ لى فى البسـتان متوحشة ، بل إليفـة مثابرة . إنهما شجرتان أيضاً ، لا واحدة (لست فالحاً فى الزراعـة . هذه المرة هذا اليوم فقط لاحظت أن أبى الذى أمضى عمره فى الوظيفـة كان حريصاً أن يغرس من كل صنف زوجين) . وهناك على المدخل الشـمـالى الذى لم أعـبر مـنه إلى البيـت ، فوجـئت بشجـرتى زيتون بجـذوع ضخـمة، وبجـذور غليظة ظاهرة ممتدة وملـتوية كثعابين متحجّرة . وقد تساقط منها على الأرض ثمر أسود كحبات البلح . واصطدمت بقُـصَف من الحطب تناثر هنا وهناك ، فيـما صـمَدَت شـجرة واحدة من شجرتى الجوافة . لقد تزاحمت الأشجار واختلطت وضاقت بها أرضها ، وبدوت تحت أغصانها ولداً ضـائعاً أنهكه السقوط عن الأشجار . واستـذكرت مـا سبق أن روته أمى لى ، عن اخـتبـاء شبـاب فى البسـتان ساعات الليل ، فى سنوات الانتفاضة . لم أجد آثاراً لهم . غير أنهم يقيناً اطمأنوا إليهـا ولم يشعروا بالذى شعرت به من غربة بين أشـجار لم يتمكّن وافروا البركات من وقـف نموها . وكنت إلى ذلك على عجلة من أمرى . منذ خرجت من البـيت أول مرة فى اليـوم الرابع للحرب واتجهت شـرقاً ، وأنا فى حال استـعجال أدفع الأيام الخفيـفة أمامى كعربات أطفـال فارغة . سأرجع . كنت أقـول لنفسى وأنا أخـوض فى الحشـائش . ورجعت لأبى متأهباً للخـروج بصحبته . أبلغته بملاحظتى عن البـرتقال القليل . فأجابنى أن الشجرات كبرت وبعضها فى الأربعين من عمرها . ولما سألته لم لا يبدأ بغرس أشجـار صغيرة مـحل تلك التى كبرت ، شجرتـان كل سنة مثلاً ، تنهّد قائلاً أنه ليس بوسعه البدء من جديد ، ولا اقتلاع الأشجار .

هيا بنا .

مشـيت بصحـبته طريقـاً دائرية تشقّ الحى السكنى وكـان الوقت قبل

المغيب مما ضاعف وطأة الظلال . ولدهشتي فقد صادفتُ أشجاراً شعثاء ونباتات عشوائية تكاد تمشى معنا وتسدّ علينا الطريق ، وكما هو الحال في البستان ، كان أبي يمسح عليها بنظرات رقيقة وكأنما يصغي لنداءاتها ، أما أنا فلم يتأخر شعورى بالألم وأنا أتيقّن من افتقاد نفسى الأولى فى الأماكن شبه المهجورة ، وقد حاولت عبثاً أن أتلمّس وأعاين السحر الذى عهدته وخلّته مقيماً . لم يتناه إلى مسامعى صوت فى السكون المخيّم حتّى تمنّيت لو سمعت تبادل شتائم أو خشخشة أفعى أو ارتطام تنكة . وانشغلتُ فى حديث متقطّع مع أبى عن قلة النظافة (عامل نظافة واحد خصصوه لأقدم مدينة فى العالم) وعن بيوت مستحدثة وأخرى حائلة الألوان ، وعن صبحة جارتنا التى ماتت وابنها سليمان الذى انقطعت أخباره ، وعن وائل الفدائى الذى أصبح شرطياً ، وعن نايف المهندس الذى أصبح جاسوساً . وعن الفرن الذى أغلقه أبو صالح قبل أن يصاب بلوثة . (أمك تخبز فى البيت ، قال أبى) وعن يوسف السلطى ابن صفى الذى عاد من أمريكا ولم تطل إقامته وظلّ محتفظاً بالبيت الذى تسكنه شقيقتاه العزباوان . وعن التدخين الأكثر ضرراً أثناء المشى . وعن أسعار الأراضى التى ما أن ارتفعت حتى هوت . إنه الحى الذى شحننى بالحياة . إنه هو ، يا للهول وقد تمنّيت لو لم أمشِ هذه المرة فى طرقاته ، وأمام الضيق الذى اعترانى لم يسعنى سوى المبالغة فى التعبير عن شعورى بالتعب (بذريعة السَّفر) كيما تنتهى جولتنا وأقفل عائداً استعداداً للمغادرة صبيحة الغد إلى الخليل وقبل نفاذ إذن الزيارة ، فلم أكن ضيفاً على أهلى وفى بيتنا فقط . . بل كذلك « ضيفاً » زائراً على الناجين الذين قذفونا بالنيران التى أصابت أهلهم ، ومع ذلك فإن كان هذا هو « أصل الحكاية » فليست هذه هى القصة . فقد شقّ على النوم ليلتها تحت وطأة هجوم البرغش (صغار البعوض) الذى تدفعه الأشجار داخل البيت وكأرواح صغيرة شيطانية ذات أزيز تنقضّ على النائمين وتحتسبهم موتى . لم أخبرَ هذه الحشرات الفتاكة فى حياتى الأولى .

ولقد وجدتُني أنام مجدداً مع أشباحي . إنها تشيّعني قبل النوم ، وبينما كانت موجودات الغرفة من قبل تتجسّم على هيئة مخلوقات مخيفة رابضة متململة ، فقد باتت الأشباح أخيراً تتقافز في رأسي على هيئة تصاوير واستذكارات وتوقعات . أجل ، إنها أشباح ذهنية . لكنها لا تلبث أن تتمرأى بين الصحو والإغفاء على هيئة مسوخ تنذر بتوقف دقات القلب أو بعزلة مطبقة أو بخسارة تامة لكل شيء أو لا تنذر بشيء غير الدوران السريع الذي لا يتوقف لعجلة الذهن . . فقد كان الاستعداد لخروج كَسيف ثانٍ من البيت بعد ساعات ، أسوأ أثراً من الاصطدام بانطفاء الحياة في الحيّ وفي المنزل الذي لم يألفه الفتى هذه المرة . خرجتُ من النوم وكالعادة كمن يخرج من ورشة لا من مستراح ، وما أن هممت بالمغادرة مواسياً أمي وأبي ونفسي حتى استمهلني أبي متسائلاً بهدوء بالغ ورباطة جأش إن كان لديّ بعض الوقت ، نصف ساعة أو أقل كما قال . أومأت برأسي موافقاً وراضياً . فأشار لي بيده وهو ينهض : تعال أُريك شيئاً . سألته : أين ؟ كنت أتساءل مع نفسي عن سبب تأخره ولماذا لم يُرني بالأمس ما يدعوني لرؤيته الآن . تعال معي . اتجه نحو الباب ومشيت في أثره وهو يهبط على الدرجات . أما أمي فلم يبدر عنها شيء ، سوى أنها كانت تتمتم مع نفسها في كلام ينم عن حيرة وأسف . وصلت إلى الممر الخارجي المحيط بالبيت والمحاذي له وتوقف فجأة عند منتصف الممر تقريباً ، وألقى بنظرة إلى حائط البناء الحجري وتنهّد قائلا :

« كما ترى . . رؤية عينيك » وقد تقدّمت ولمستُ الحجر بيدي فإذا بسطحه الخارجي مهترىء، يتفتّت بين الأصابع لدى أول ملامسة . سألته سؤالا زائداً إن كان البناء كله قد أصابه التلف على هذا النحو . فأجابني بهدوء : طبعاً ، في ما يخصّ الطابق الأول . وتقدّمتُ خطوات إلى الأمام لأعاين مقاطع أخرى من البناء وقلت إن هذا لشيءٌ كثير . وسألت عن الحل وما إذا كان استشار مهندسين وبناءين . فهزّ رأسه وبدا متوقعاً سؤالي

وقال إنه لاحظ ما أصاب البناء قبل نحوعشرين عاماً حين همّ ببناء طابق ثالث : إن الأمر يتطلّب الآن وضع أعمدة استنادية فى جميع زوايا البيت مع إضافة جدران خارجية واقية ترتفع إلى الطابق الثانى . وسألته إن كان هناك غش فى البناء ، فنفى ذلك وعزا ما حدث إلى سوء الحظ لا أكثر ، وأن الحجر غير قابل للترميم ،وأن ستاً وأربعين سنة من عمر البناء ليست قليلة ، ثم سألته (لم يكن فى جعبتى سوى الأسئلة بما فى ذلك بل خاصة الساذجة منها) إن كان الوضع يُنذر بسوء فصارحنى أن الوضع غير مطمئن وإن كان ليس هناك من خطر وشيك وهذا ما أبلغه به البناؤون ومهندسو البلدية .

وانطلقنا نتمشّى طائفين حول البيت . أُنظر هنا وإلى الأعلى وإلى الحجارة جميعها ، هذا حجر سليم . . هناك حجر آخر عند مدخل البيت أما البقية فكما ترى . لقد ارتفع ثمن كل شىء وكلفة صيانة « من هذا النوع » عالية . وضحك ساخراً : كأننا نبنى من جديد . وهنا ،لَحظْتها ، ثار فى مخيلتى تراب كثيف . . تراب الهدم . فهبط قلبى وتبادلتُ معه نظرات جزعة متألمة . ولما سألته مجدداً عن الحل وعما يمكن البدء به ، قال إنه ينتظر أن أفكّر مع إخوتى . وما زلت أفكر . فليس فى طاقة أحدنا فى هذه الظروف البناء من جديد ولا حتى تحمّل الكلفة العالية للترميم . . والتى سيبقى معها البيت القديم على قدَمه . وكنت أدركتُ أن أبى يودّ إعادة البناء دون اللجوء إلى الهدم . وقد وافقته فى سرى على ذلك ، وأنى لأبحث معه عن طريقة ممكنة ذات جدوى ومعنى للوفاء بهذا الأمل قبل فوات الأوان .

لا ، لم أتوقع ذلك . قلت له فى نهاية مطافنا فقال إنها تسعٌ وعشرون سنة منذ الحرب بل من الحرب المستمرة ، فهل ، تتوقع – سألنى – أن يبقى كل شىء على حاله فى مثل هذه الظروف .

بهذا أمكن لصدع إضافى أن ينشق داخلى ويرسل إشارات مظلمة إلى رأسى . وقد أدرك حال السويداء التى اعترتنى واستشعر أنه أثقل علىّ ، فأحاط كتفى بذراعه وقد بدت أقوى مما توقعتها (أبى من مواليد سنة وعد بلفور) ثم توقف وحدجنى بنظرة هازئة رفيقة وسألنى بم افكّر . لم أجبه بشىء .

فدعانى وهو يتقدمنى بخطوات ثابتة لتناول القهوة مع أمى قبل أن أغادر . وما زال طعم القهوة بعد سنة من الزيادرة فى فمى ، ومع مذاقها السائغ يتردد صوته العميق : كَبِّر عقلك . دائماً كنا نجد حلاً لن ننتظر حتى ندفن تحت الأنقاض . .

ولما سألته لماذا كان مزاجه مختلفاً حين كنا نطوف حول البيت فإنه هزّ رأسه وقد طافت ابتسامة ساخرة حانية على محياه ، ودعانى أن أنهض ولا أتأخر عن موعدى .

ومع أنه لم يتبق لدىّ ما أقوله الآن ، فإنى واثق بصورة ما أنها هذه ليست هى القصة .

حادث مؤسف

حدث من جملة ما حدث من حوادث مؤسفة أن الأمر بلغ بآمنة بنت الحاج محمود الصفدى درجة من العناد والعزة بالإثم جعلها تتمنع وترفض ، تناول الفئران المشوية والكلاب المطبوخة وحتى القطط المحمرة (وهذه لا تختلف بشيء عن الأرانب . . .) . رفضت وكأنها بنت قصور تختار ما يطيب لها من طعام ومأكولات . أو كأنها على أرضها وليست على أرض غيرها . قد تمنعت ورفضت ، أى والله . . دون حياء أو خجل . وظلّت تتطع مع ذلك بالحديث عن الوطن والصمود وكأن الوطنية كلام وشعارات .

لم تذق لقمة واحدة برغم الحاح الأهل وضغوط المحرومين الذين حاصروا المخيم حصاراً محكماً أبلوا فيه بلاءً حسناً . وبرغم الفتاوى الشرعية بأن أكل الجثث البشرية عند الاقتضاء حلال مباح ، فما بالك بجثث الحيوانات وهى أرذل المخلوقات وأوجبها بالمنفعة والفائدة منها .

ولا لقمة لم تأكل ستنا بنت الحاج محمود .

كان الصبية وما أكثرهم يتنططون حولها ضاحكين هانئين يتلمظون بدم الحيوانات ، وآمنة تراهم وتلاحظهم ، ومع ذلك لم تتزحزح ولم ينبض فيها عرق . لقد كانت معرفة الأطفال الشياطين بأن وجبة فأر مشوى فى الطريق إليهم كفيلة بتفجير مخزون الفرح فى نفوسهم ، فسيأكلون ويشبعون ويرقصون ولن يخيفهم شيء بعدئذ ، هكذا كانت تحدّثهم عقولهم الصغيرة . وحتى الكبار من رجال ونساء كانوا يتدبرون أمورهم : ينزوى واحدهم فى ركن وقد أدار ظهره وأحنى رأسه ، فيتناول ما تيسّر

أكله برضا وقناعة ، بل بكل ممنونية حتى تحسبهم أغنياء من التعفف . لا ، لم لم يكن الأمر بذلك التعقيد الذى تصورته الهانم الخانم آمنة بنت الحاج محمود . فالأمر فى النهاية سواء تعلّق بفأر مشوى أو قطة محمّرة أو كلب مطبوخ ، الأمر موقوف على الشهية والقابلية بل له وطيد الصلة بسلامة الطوية . ولكن أنّى لعقل آمنة الضيّق أن يستوعب ذلك . لو اتكلت على الله ومدّت يدها وتناولت لقمة أو لقمتين أو ثلاث ، حتى تنتهى الإشتباكات المؤسفة والقصف المؤسف والحصار المؤسف ، بعد شهر أو شهرين أو ثلاثة وحتى أربعة وبالأكثر خمسة ولن تزيد عن ستة ونهايتها سنة أو سنتين أو ثلاثة . لو فعلت لما أصابها ما أصابها من نوبات غثيان وقىء كانت فى غنى عنها ، ولاستردت بالتأكيد عافيتها .

قد تذرعت بأنها فى أشهر الوحم ، فهل يدخل هذا الكلام فى رأس عاقل أو مجنون ؟ من عندها وقت ومن بالها خال للتوحّم . أيمكن أن تصل الأنانية بأحد إلى هذا الحد ؟ لا يا آمنة ، العبى غيرها ، خيّطى بغير هذه المسلة . لا تصغّرى الأمور . لقد سقط مئات فقط بينهم عريسك على طريق تصحيح الأوضاع ولم يبق سوى القليل لتتحقق الآمال الكبار ، فلماذا تصغّرين الأمور؟ مابه الفأر المشوى . . مم يشكو ، لماذا لا تأكلين منه ، هل تذوقت طعمه ، هل حاولت أن تجربّى ؟ لا . لم تفعلى . لماذا لا تقولين إذن بصراحة ، إنك ترغبين فى كباب وفستق حلبى ؟ ماذا ستفعلين إذاً لو رجعت إلى أرضك ؟ طبق الفأر المشوى دون مبالغة طبق مميز باعتراف من تناولوه فلماذا لا تأكلين منه . تقولين وَحم وتنتظرين أن يصدقك أحد . هل وصلت خرافة القرار المستقل لأن تقررى حتى ماذا تأكلين وماذا لا تأكلين ؟ تعرفين أن المقاتلين يأكلون بطيب خاطر الأفاعى والسحالى والجيف والحشرات ، فلماذا تميزين نفسك عنهم ، ثم تصرّين

مرة أخـرى على أن المسألة مسألة وحم ولـيست موقفـاً مبدئياً من الفـئران والكلاب والقطط.

بقى أن تفاخرى بوحمك وتصدرى بياناً عنترياً بذلك . من يدرى فقد تصل بك الخلاعة إلى هذا الحد . كنا نتوسل لحضرة جنابك أن تأكلى وأنت ترفضين دون أدنى اعتبـار أو مراعاة لمشاعر ومقامـات من يتوسلونك . كان ينبغى أن تفعلـى ذلك ليس من أجلنا ولا حتى من أجلك أنت بل من أجل صغيرك الـبرىء فى بطنك . إلى هذا الحد يصل انعدام الشعور بـصاحبه . الأيام كانت تمر وأنت تنامين على لحم بطنك ولم يدخل معدتك غير الشاى . طبعـاً كان يجب أن تصـابى بالجفـاف والغثـيان والهزال . قلـنا لك مرة : صيامك هذا حرامٌ حرام . وهناك قوى كثيـرة متربصة سوف تستغل الوضع أبشع استـغلال لتـصور الأمـر وكأنكم تشـتكون من مجـاعة . ومع ذلك أغلقت قلبك وأذنيك عن نداء العقـل . وليتك اكتفيت بـهذا ، بل أخذت برشق اللعنات والشتائم كيـفما اتفق . من أدخـل إلى قلبـك الوردى هــذا الحقد الأســود . ليس القتل يا صغيـرتى مهماً بحـد ذاته ولا حتى حروب الإبادة بذات أهمية . المهم هو السياق الذى توضع فيه .

نفتح قبرك . . عفواً ، نفتح سيرتك الآن ، ليس من أجل خاطرك ، فـرعـان ما يصيبك ويصيب أمـثالك الغرور والخيـلاء من أول بادرة اهتمام بهم ، لا ، ليس من أجلك . فالأفراد لا قـيمة لهم وكلهم زائلون . لا ، ليس من أجل سواد عينيك وجمالك وأنت بالمناسبـة صبية جميلة لم يذهب الجوع بجمالك وإن أضفى على ملامحك صفاءً شيطانياً . لم يطفىء الجوع شرارات عينيك حـتى وهما مغرورقـتان بدمع حبيس ، ولم يكسـر قامتك المشوقة ولا رنين صوتك . حاصلة : إننا نسوق هذا الحديث لوضع النقاط

على الحروف ووضع الحق فى نصابه . . وكفى .

إننا نعرف كل شيء . نعرف أين كنت تختفين ، مع من كنت تقضين أوقاتك . نعرف حكايات التحريض على من يقومون بواجب الحصار . نعرف كل شيء . فكُفّى عن التحديق فى وجوهنا . نعرف البرامج والهمسات والأناشيد والنوايا . نعرف ما يدور فى رأسك الماكر وماتضمه قبضه يدك الصغيرة . نعرف أيتها الشابة أيتها العروس « عروس فلسطين » . . كأنكم صدقتم حقاً أن فلسطين لكم ! لا ، ليست لكم ولا للصهاينة . إنها للمجد والسؤدد والأمة الماجدة . نعرف ونطمئنك أنه فى اليوم نفسه الذى تم فيه دفنك بثوب العرس الأبيض وسط فوضى الزغردات والعويل والطلقات والهلوسات وكل أشكال الفلتان - وهو أيضاً اليوم الذى تم فيه دفن أربعة آخرين أُحبطت خطتهم المشبوهة لإدخال شاحنة تموين عنوة إلى المخيم (حاولوا إدخالها لتغذية ذلك النهج المعروف) . فى ذلك اليوم نفسه ولعله كان يوم خميس ، فقد سمح من كانوا يقومون بواجب الحصار من تلقاء أنفسهم دون ضغط أو ابتزاز من أحد ، بإدخال أول شاحنة ملأى لآخرها بالخبز والحليب والمعلّبات ، وقد أكل الناس وشربوا كأن شيئا لم يكن . إلاك أنت ، لم تكونى هناك . فهل تدركين مغزى هذه المصادفة . . وأن صيامك كان بلا سبب وأنه باطل فى باطل وأنك ذهبت ضحية استسلامك للأوهام . صحيح أن القصف لم يتوقف بعدها (لماذا يتوقف ؟) بل إنه اشتد ، ولكن قصفاً مع طعام أفضل بكثير من قصف دون طعام . هكذا يقول العقل لمن فى رأسه عقل . ولكن الوقت قد فات . فات لدرجة أن القصف دون قصد أصاب قبرك البعيد وضيّع معالمه . فماذا يهمك أنت بعد أن متِّ وانتهى الأمر ؟ لقد متِّ وانتهى الأمر .

هذا ما حدث مع المدعـوة آمنة بنت الحاج محمود ، فمـا الغريب فيه .. ما الغريب ؟

مع ذلك ، يُصرُّ البعض أن يجعلوا منها قصة ، فتصوروا !!

سليم وسليمان

يؤمن سليمان بأنه يتقمص روح صيـاد قتيل ويشعر بالزهو حيال ذلك . فهو ليس مـجرد طبيب نساء ناجح في الخمسين من عـمره ، ويملأ الطموح حياته . . بل إنه إلى ذلك : اثنان في واحد .

إنه سعيد بهذا الاكتشاف ، وكـشعور شخص عادى من عامة الناس ، يفاتحك ذات مرة أنه سليل عائلة نبيلة دون أن يطالبك بشيء مقابل ذلك .

كيف عرف أنه يحمل فى إهابه روح ذلك الصياد ؟

أهله – يقول – أنبـأوه – بذلك ، وقالوا إنه كان فى الصـغر فى سن السابعة والثامنة من عمره يلهج بعـبارات كان الصياد المغدور يرددها ، وقد تعرف إلى زوجة الصياد وجيرانه ، وأنه روى لهم حوادث ووقائع لا يعرفها إلا الصياد وعائلته .

كان يبدو مغتبطاً إلى حد الانتشاء فى كل مرة يقص عليّ حالته هذه ، لقد ردد ذلك على مسـامعى عشرات المرات ، منذ تعرفت عليـه فى مناسبة عامة قبل عشر سنوات ، حتى شـعرت أنه يرمى لإثارة حسدى وقد شعرت بذلك بالفعل . فأن يعيش المرء حـياتين وأن يكون اثنين فى واحد ، فذلك ما لا يـتسنى لجـميع الناس ، ومنهم صـديقه أنا . حـتى كان ذلك اللـقاء الأخير الذى جمعنا .

– إذن ، أنت الصياد .

– بصورة من الصور ، أجل .

– إذا كنت أنت الصياد ، فماذا عنك أنت ؟

- لم أفهم سؤالك .

- من أنت ؟

- أنا سليمان .

- هل سليمان هو اسم الصياد ؟

- لا ، اسمه سليم .

- إذن أنت شخص آخر غير سليم .

- بالطبع .

- ما قيمة أن تكون الصياد ما دمت شـخصاً آخر غير الذى كان اسمه سليم ؟

- ليست مسألة قيمة أو أهمية .

- ماذا إذن . . .

- إنه يعيش فى داخلى . أنطق أحياناً بصوته . . استذكر وقائع جرت له فى حياته ، ثم لا ألبث أن أعود إلى شخصى ، إلى نفسى .

- هكذا إذن ؟

- أجل .

- تتقمص روح سليم ، ماذا عن روحك ؟

- ما بها ؟

- أليست روحك أنت . أليست لك روح ؟

- بلى ، لى ، مثلك .

- فكيف تعيش بروح شخص آخر ؟

- أنا أحيا بروحى .

- وسليمك ؟

- أننى أعيش وأتنفس بروحه أحياناً ، لا دائماً ، كنت فى السابق فى أيام الطفولة كما قلت لك ، أعيش به ومـعه أكثر بكثير مما يقع لى هذه الأيام .

- هل راجعت طبيباً نفسياً ؟

- ولماذا أفعل . . دع هؤلاء فى حالهم . أحد أصدقائى منهم . . إنه يضجر من مرضاه الذين يثرثرون بلا توقف .

وقد بدا لى صديقى سليمان هذا . بأنه يتـقمص هذه المرة شخصية طبيب ومريض ، حتى شعرت بالضجر منه .

- أنت مسكين ، قلت له :لقـد أسلمت روحك لشيطان . بعتـها ، بعت روحك . ستـموت حين تموت سـوف يتقمص شـخص آخر روح صيادك القتيل . سـتكون مجرد وسيط وقنطرة بين أقران سليم المتعددين .

قـلت له ذلك وقـد ضـقت ذرعاً به وانتـابتنى مشـاعـر متـضاربة حيـاله . . فقد عـجزت حتى سن السـتين عن معرفـة قرينى الذى أتقمصه أمـا هو فقد عرف ذلك منذ البدأ ، مما أسبغ عـليه الشعور بالسلام الذى يـغمره . لقـد استغـرب نبرة النقـمة والتـحدى التى تغشى حديثى ، بل استغـربت أنا نفسى هذه النبرة تصدر عنى ،وقد عهدتنى رقيقاً ودوداً معه .

كنا نقتعد كراسى واطئة فـى ظل شجرة توت ، فى مساء أحد أيام

الربيع . وقد اشتدت الريح فجأه ، وكان ذلك أمراً متوقعاً فى هذا الموسم المتقلب .

وما أن تهيأت للمغادرة وقد أسعفنى هبوب الريح للتذرع بسبب الخروج ، حتى استمهلنى بنبرة جافة وبعينين جاحظتين ، أخذتا تحملقان فى بنظرات غير ودودة . وقد قال لى شيطانى حينئذ ، إنه يمتلىء بمشاعر الانتقام حيالى فى تلك اللحظة . فقلت مستدركاً :

- دعنا مما كنا نتحدث فيه ، ودعنى أخرج الآن .

نهضت فامتدت ذراعه ووضعها على كتفى . دون أن تهدأ ملامحه وقد احتفظ بجحوظ عينيه ، ووصلنى صوته الأجش الأليف كأنما ينبعث من قاع سحيق .

- لست أملك حق الانتقام من قاتل سليم ، ولا أن أغفر له .

وكنت قد توقعت الأسوأ . وانتظرت أن يرفع بيده الثقيلة عن كتفى ، وقد فعل ذلك أخيراً وهو مضطرب الأنفاس ، فيما التفتت عيوننا بنظرات تشى باللوم . . وبالفراق الذى وقع منذئذ .

الفيلم

تمكنت بشق الأنفس من الوصول فى السادسة مساء إلى دار السينما . موظف شباك التذاكر ناولنى تذكرتى وهو يشدد على أن الفيلم « سوف يبدأ الآن » . ومع أننى لم أكن أعرف الاتجاه إلى القاعة ، إلا أننى استطعت تبين طريقى إليها ، وقد عبرت سريعاً لأجد الموظف المرشد إلى المقاعد فى استقبالى . لم أره ، بل شعرت بوجوده وسمعته يقول : هيا . تبعته فى الظلمة حتى سمعت خطاه تتوقف ، وقد بدا لى أنه استدار قائلاً :هنا . تحسست بيدى أول مقعد عن يمينى فألفيته فارغاً ،وخمنت أنه المقعد المقصود ، ذلك أن الموظف لم يضىء مصباحه .بدا لى أن هذا السلوك المتكتم خاص بهذه القاعة التى تعرض أشرطة مختارة ، أو أن استخدام المصابيح قد توقف فى الصالات ، وذلك خلال انقطاعى عن ارتيادها منذ خمسة عشر عاماً . لم أقلق فما دمت وصلت قبل بدء العرض وعثرت على مقعدى . . فلم القلق ؟ كانت العتمة شاملة فى الصالة حتى إنى لم أتبين أحداً بجوارى أو حولى ، ولم يبلغ مسامعى أى صوت أو غمغمة ، كما كان عليه الحال أيام ارتيادى دور السينما ، حيث كانت الأحاديث تدور بحيوية دون حرج ما دامت غير عالية . على أنى شعرت دائماً بضيق من لحظات التعتيم التى تسبق بدء العرض ، كنت أراها طويلة غير مبررة ، وطويلة مهما كانت قصيرة ،وأن المقصود أن توقع الرهبة فى روح المشاهدين . . لا من العتمة نفسها بل من أفانين التقنية ، وسلطان الفنيين عليها وعلى الجمهور ، وقد آن لى - قلت لنفسى - أن اعتاد عليها وأن أتصرف بروح جماعية متقبلة ،ومتحضرة . علماً بأننى لست ممن يرهبون العتمة . . أضيق بها أجل ، إنما ليس إلى حد الرهبة أو الرهاب ، ويعيننى على ذلك

استعدادى الفطرى للتجمل بالصبر ، إننى صبور على الجملة ، وقد قالت لى أمى فى غير مناسبة أن هذه الخصلة كانت تميزنى عن أشقائى وتحببنى لها فى صغرى . صبور . . نعم ، ففيم العجلة ولو لم أكن كذلك فما الذى كان يدفعنى للمجىء لمشاهدة الفيلم الذى أوصانى صديقى الناقد برؤيته ، وقد اعتبره تحفة الأفلام والفيلم الحلم . وإذ يميل صديقى إلى المبالغة ، إلاّ أن أحكامه قلّما تخيب .

وكما أن أى أصوات أو همهمات لم تصدر من حولى ، ولا تناهت إلى من أى مكان فى الصالة (باستثناء ما استشعرته من حضورهم الشبحى وخفق أرواحهم) كذلك لم يبدر عنى أى صوت أو همهمة ، و كيف كان لى أن أفعل ذلك وقد جئت منفرداً . . أنى ألتزم الصمت على العموم فى الصالات ، ولا أصادف مشقة تُذكر فى ذلك .

إنها العتمة كما فى كل مرة ، ولو كنت صاحب خيال واسع أو أكثر تطيراً ، لتصورت أن مكيدة ما على وشك أن تقع ، أو أن أذى قد يلحق بأحد ما فى الصالة ، وأنه فى الوقت الذى يجرى فيه الاستعداد لعرض قصة خيالية ، فقد تقع واقعة حقيقية على المقاعد أو فى الممرات أشد إثارة من أية وقائع متخيلة . لكنى لم أسمع من قبل بحادثة ما فى صالات بلادنا سمعت فقط عن ملامسات واحتكاكات ليست ذات شأن بعضها غير برىء وأغلبها ذات طبيعة مرحة .

عبرت رأسى هذه الأفكار بسرعة شديدة ، فما الذى يسع المرء فعله وهو أسير الصمت والانتظار ، ومشمول بعتمة كثيفة هى جزء من تقاليد صالات السينما . . عتمة كنت أفكر دائماً أنها تستغرق وقتاً طويلاً ،لكن أصدقائى بمن فيهم ناقد السينما يؤكدون أنها جدّ قصيرة ، وأنها تمتد لدقيقتين فقط أو أقل من ذلك حسب الظروف ، وإنها فوق ذلك جزء من سحر السينما . حتى تصورت أن نفاد صبرى المستجد ، هو أحد علامات

تقدمي في السن نحو الخمسين ، وإذ تناهبتني هذه الأفكار لم أعد أعرف إن كانت فترة التعتيم طالت أكثر من المعتاد ، أم أنها استغرقت الوقت المعهود : دقيقة أو دقيقتان . وأمام ذلك ساورني شعور بالندم على مجيئي ، وانتابني إحساس قوي بأن زمن ارتياد صالات السينما قد ولى بالنسبة لي ، وأنه ما كان يجب أن أخالف طبعي وأحمل نفسي على المجيء . فكم من أشرطة قيل أنها تحفة زمانها (موسمها) فاتتني مشاهدتها دون أن يطرأ خلل ما على مسار حياتي . . وبدا لي هذا الندم مشابهاً لما شعرت به حين قصدت دار السينما في سن التاسعة ، فقد شعرت آنذاك بضيق شديد وبدا لي المكان غير الف ومتكلفاً ، وها هو الانطباع نفسه يتكرر بعد أن تسنّى لي مشاهدة نحو مائة فيلم ، في ما لا يقل عن عشرين صالة في أربع عواصم . ها هو الشعور نفسه يعاودني هذه الأمسية ، مما جعلني أهمّ بالمغادرة وما أن انتويت ذلك حتى هتف بي خاطر يقول : لا شيء يضمن أن باب الصالة مفتوح ، هذا إذا أمكنني الوصول إليه . عندئذ تسلل وهن إلى قواي ، ولم ينقذني سوى صوت الموظف المرشد الذي اقترب بي بحفيف ثيابه هامساً : « يسعدني أن أقف على خدمتك . . يمكنك المغادرة فوز انتهاء الفيلم وليس قبل ذلك » . كانت نبرته ودية ومطمئنة رغم أنه لم ينتظر ليسمعني ، ورغم هيئته الغامضة غير المرئية التي سرعان ما تلاشت في العتمة المطبقة . العتمة التي لم أعرف كم طال أمدها والتي لم يبددها أي عرض سينمائي .

رسالة

فيما كنت أهم بشراء خبز الصباح ، صادفته هناك فى الدكان ، بين أشخاص متفرقين يديرون ظهورهم لبعضهم بعضا . كان يجاورنى مجاورة غير قريبة ، وقد حانت منه التفاتة نحوى ، ومنى نحوه بصورة متواقتة ، فاضطربت لرؤيته اضطرابا شديدا وشهقت . ثم كتمت انفعالاتى القوية لهنيهات . فإذا به وقد استشعر ما ألم بى ، يقابلنى بنظرات واجمة تشى بالإنكار .

إنه هو بقامته الفارعة وخاتمه الفضى فى إصبعه القصيرة وشاربه الأسود المحفوف ، وبالحركة المتوترة لذراعيه . ساءنى تجاهله لى . وقبل أن أفكر بالرد على تجاهله ، إذا به يسارع لتسديد ثمن مشترياته ، ويحملها فى كيس خفيف ، وقد تبدى لى ، أن اهتمامه كله يتركز على ذلك الكيس الأبيض فى يده ، وأنه لن يعير اهتماما لأحد حوله . (يوسف) صدر عنى النداء بصورة لا إرادية ، بل رغما عنى .

سمعنى والتفت نحوى ،فرآنى أقف قبالته وانتظره . غير أن كلمة أو إشارة لم تبدر عنه ، وسارع بحيويته المعهودة للدخول فى سيارة حمراء حديثة كانت تنتظره ، وما أن دخلها حتى اندفع بالكلام مع إمرأة داخل السيارة وراء المقود ، لا شك أنها زوجته ، وهو الذى أعرفه أعزب . وقد لاحظت أن المرأة رمقتنى بنظرات جانبية متوجسة . ولم تلبث السيارة ان انطلقت بهما ، مخلفة صريرا حادا مخنوقا . حتى خفت من الدهس ، رغم إن السيارة كانت تبتعد عنى .

كان على وقد إستعدت وحدتى أن أستعيد جملة الموقف فى رأسى ،

وأعيـد تركيـبه بالدقة والسـرعة الممكنتين ، حـتى تنقشع الرؤية أمـامى فلا أصاب بكدر ثقيل طيلة النهار . . .

وكان ينبغى قـبلئذ أن أشفع للرجل تجاهله لى . فـهو فى واقع الحال وفى ضوء شمس حزيران يشبه بما هو أكثر من الشبه ، صديقى الذى دهسته سيارة كانت تقودها إمرأة قبل خمس سنوات .

ولعله جاء ينبـهنى أن من يشبهون صديقى تمام الـشبه أو من هم على صورته ، لن يسـعنى أبدا اتخاذهم أصدقاء لى . . والأرجح أن ينـشأ عداء بيننا .

من أرسله ؟

يقينا ليس صديقى يوسف من أرسله ، فليس للموتى مثل هذا النفوذ . بل الموت هو الذى فعل . .

الموت نفسه ، الذى لا يكف عن بث الرسائل للأحياء .

وعلى راضيا أو كارها ، أن أمضغ هذه الحقيقة مع خبز الصباح الذى تأخرت عن شرائه .

شيطان العتمة

يصدر الصوت من أسفل البناية كضربات مفزعة لطارق غريب ، وفى العادة بعد أن تنقضى السهرات الشتائية القصيرة ويخلد الناس إلى النوم . صوت به من التفجع والأنين مابه من نداءات ملهوفة .

منذ الشتاء الماضى لم يصله هذا الصوت الليلى وإذ به يستمع إليه فى هذه الليلة العاصفة كأنما يستأنف سماع صوت لم يفارق مسمعيه وجوارحه . حتى أنّ الصوت يبدو كأنما يعنيه بصورة من الصور إن لم يكن يخاطبه ، وأن كان بوسع ساكنى الطبقات الأربع من البناية الإصغاء مثله إلى الصوت ، وفى وقت لم ينتصف فيه الليل بعد . .

فى طفولته كان الصوت يسبب له فزعاً شديداً ،رغم أنّ الصوت لا يخلو من تنغيم طفولى . وكم فارق عينيه وضغطت عليه الرؤى الكابوسية وهو يتخيل صاحب أو صاحبة الصوت يتقدم أو تتقدم من فراشها .

كان يجب إغلاق البوابة . بمثل هذا يقول أحد الجيران وهوشاب فى الخامسة أو السادسة والعشرين لا يعمل شيئاً ويقيم مع أبويه العجوزين ، وتزعجه أصوات الغناء والأطفال والقطط والضيوف وكل أصوات أخرى ، رغم أن طرقعة حذائه على الدرج وحدها ، كفيلة بإيقاظ النائمين من سبات عميق . لا أحد يغلق البوابة لأنّ هذا الأمر غيرعملى كما يقول ساكن ثان فى الثلاثين متزوج وله طفلة ، ويعمل محاسباً فلا يملك جميع الساكنين مفاتيح البناية ، وحتى لو تم ذلك فمن غير الممكن أن يحوز الأولاد والبنات على مفاتيح . علاوة على أن البناية التى أنشئت قبل أقل من عشرين وما زالت تتمتع بمظهر مقبول ، لا تتوفر على جهاز نداء للصوت فى مدخلها كحال

البنايات الحديثة ، فكيف يدخل الضيوف ليلاً ؟ وحتى لو أغلقت البوابة ، فإن الصوت الليلى قد يصدر من أى موضع آخر من الممر المحيط بالبناية حيث لا يمنع السور الواطىء أحداً من القفز عنه ، لو شاء التسلل إلى باحة البناية ومدخلها .

لا أحد يستذكر الصوت فى النهار ، لا الكبار ولا الصغار ، بعد المناقشات التى انقضى العهد عليها وطويت صفحتها حول إغلاق البناية أو إبقائها مفتوحة ، وقد بقيت دون إغلاق .

وهذه الليلة فقد تمنى وهو أطول الساهرين سهراً لو أنها مغلقة ومقفلة بمفتاح ، فالصوت المطوط المجروح يخترق هدأة الليل ويبلغ مسامعه واضحاً صافياً وذا رنين وصدى . وإذ خطر له أن ينهض ويتجه إلى بوابة المدخل ، فقد كان يعرف أن الأمر قد ينطوى على قسوة . فما الذى سوف يفعله حينئذ : أيطرد القطة ويضعها فى مهب الرياح الباردة ؟ أيستدرجها للدخول إلى شقته فى الطبقة الثانية لحمايتها وتهدئتها هناك ؟ وإن فعل فمن يضمن عدم استيقاظ زوجته التى تتطير من القطط و « أرواحها السبع الشريرة » ، بأشد مما تخشى الكوارث المحققة ؟ عليه إذن أن يجد طريقه إلى النوم ، ويضع حداً لسماع الصوت المكلوم . وقد تساءل حينئذ : منذ متى كان طريقه إلى النوم مهيئاً ومضموناً ومرهوناً بقرار يقرّه بهذا الشأن ؟ إن مجرد التفكير يطرد النعاس من جفنيه . أجدى أن يصغى لشىء من الموسيقى لعلها تطغى على الصوت الآخر وتطفئه . ولدهشته فإنّ الموسيقى الخفيفة وهى الوحيدة التى تروقه فى الليل قد بدت وهى تنساب هادئة حالمة ، مجرد خلفية للمواء الشجى المطوط الذى ينبعث من أسفل البناية . وحين لجأ إلى رفع صوت الموسيقى فقد اختلط الصوتان اختلاط الملح بالسكر ودموع الفرح بدموع القهر . وفاقم من ذلك تشيج الرياح التى تهب وراء النافذة وترسل صفيراً مدوياً موصولاً ، ينذر بانفجار سيول من المطر .

لم يكن ممكناً الإصغاء إلى ذلك كله لا بذهنٍ صافٍ ولا بقلب ثابت . ولّما كان صوت الموسيقى هو الصوت الوحيد الذى يسعه التحكم به وإسكاته فقد فعل ذلك أسفاً وكأنما يسد طريق النجاة أمامه بنفسه ، وفى هذه الأثناء كان الصوت المنغم المرسل ينبعث من أسفل ،ويملأ فراغ الغرفة ويتخلل عظامه ، حتى جعله يشعر برجفة داخلية رغم أن الغرفة حسنة التدفئة . وقد ود فى تلك اللحظات لو أنه على دراية بلغة القطط إن كان لها لغة . أتكون القطة ترسل مجرد أصوات ترضيها وتطربها ، أم أنهابحق السماء تخاطب أحداً ، حيواناً أو إنسياً بنداء ما ؟ ود إن يشغل ذهنه بهذا الأمر لبعض الوقت ، رغم ثقته أن لا فرق ، فسواء كانت مجرد أصوات هذه التى يسمعها أو أنها تصدر من قرار بئر ، أم أنها نداءات تتجه إلى مخلوق أو أكثر ، فالنتيجة واحدة إذ أن القطة فى موقف الشكوى والألم ، وليست فى موقف الغناء والترقيص مثلاً . وبما أنه الوحيد الذى يصغى إلى الصوت (فى واقع الحال ربما كان هناك حقاً آخرون من ساكنى البناية يصغون لمثل ما يصغى إليه . وإن فعلوا فإنهم يفعلونه بمشاعر السخط والحنق ، بمن فى ذلك التاجر العجوز الذى ماتت عنه امرأته قبل سنتين ويقيم وحيداً فى الطبقة الرابعة . لقد رآه مرات عدة يطعم قططاً ويسقيها . لكن شهد عليه فى مرات أخرى وهو يطلق صرخات عليها ويطاردها ، كأنما كل شىء موقوت بميقات ومحسوب بحساب لديه) إذن بما أنه يستشعر أن لا أحد سواه يصله الصوت ، فإن هناك شيئاً ما يتوجب ويتعين عليه أن يفعله . إذ لا يسعه الإنكار بأنه قد سهر الليلة مع الشقاء الحيوانى الظاهر .

وقد حاول خلال ذلك ، منذ ساعتين ، أن يستذكر ما الذى يلجأ إليه فى ما سبق من ليالٍ شتائية حيال الصوت وبصدده ، فاكتشف أنه لم يكن يحرك ساكناً ، إذ كان يكتفى بالإصغاء المتقطع ومغالبة الكدر المكظوم ،

بالانشغال بكـتب يقرأها وصفحات يسطرها ، أو الانـغماس في نوم دافيء على سرير الزوجية وهو ما يسعه أن يفـعله الآن إن شاء ، مستعيناً بمشاهدة مـاتبقى من برامـج التلفزيون في غـرف نومـه . وقد همّ بـالنهوض لهـذا الغرض ، لكنه سرعان ما استذكر من تجاربه السابقات أن الصوت كان يظل يرافقه فيـما بعد في الصباحات والنهـارات ، وأن ظلالاً من الشجن كانت تضرب أعمـاقه ، مهمـا حاول الضغط عليها . وإن هاتفـاً يهتف به – هو الموظف الأربعيني الذي يعيش حياة عائلـية هانئة تعكرها سحابات عابرة من كدر يومي ، والذي لا تعرف عنه لأ الرقـة المفرطة ولا الغطرسة الظاهرة – أن ينهض في هـذه اللـيلة الـشتائيـة من أواخـر أيـام كـانون ، لمعالجـة أمر القطة .. أو صوتها فـقط وبطريقة لا تثقل عليه ولا على الحيـوان الصغير الملهوف الذي يقبع في العتمة الباردة .

فتح الباب بحـذر ، وجاءه الصوت أكثر وضوحاً . أضـاء كهرباء ممر الدرج فإذا بالصوت ينقطع وإذ توقع أن يسكت الصوت مع انقشاع العتمة ، فإنه حار إن كان عليه أن يتحلى بمزيد من الحـذر أم أن يحمل الأمر محملاً هيّناً . على أنه كان يدرك أن مـواجهة هذا الحيـوان الضعيف في العـتمة ، يحمل خطراً أن يرتد القط على التـو إلى أصوله في فصيلة الـنمور . أخذ يهـبط الدرجات بخـفة وتـؤده ، وهو ينادي القطة بالطريقـة الوحيـدة التي يعهدها منذ طفـولته : بس . بس . وبنبرة هادئة شفـوقة ترمي إلى طمأنه الحيوان المستضـعف الذي أخذ يستجيب للصوت ، ويقوم بتـحركات بطيئة ومسمـوعة لعلها استكشـافية . واصل هبوطه موطناً النفـس على التماسك والثـبات ، وفي خـاطره أن يفـعل شيـئاً على هذا الـنحو : يغلق البـوابة ويستـدرج القطة وراءها حتى يبلغ باب شـقته . يعـرض عليهـا عند الباب حليباً وبقايا طعام ، ويطعـمها هناك حيث المكان أقل برودة ، ثم يغلق باب شقته ويذهب إلى النوم .

حل معـقول وأفضل من أى حل ، هذا حـدّث نفسـه وهو يهبط إلى المجهول وحالما أدرك الدرجـة الأولى ، فقد اعتمت فجاءة حسب البرمجة الموقوتة لإنارة الدرج . لم يكن يحـمل مصباحـاً يدوياً ، لكن عينى القطة الصغيرتين أضـاءتا ببريق أخّاذ ومخيف ومفعم بالألوان ، جـعله يتسمر فى مكانه ويكتم أنفاسه . فيما انبعث على التو مواء حاد طويل وشنيع ينم عما بعده . وإذا به بدوره يطلق صـرخة حيـوانية جهـد أن لا يجعلها عـالية ، صرخة فزع وغضب أردفها بـركله عشوائية ، ثم بمناوشة من يديه مع الهواء المعتم، ثم بركلة ثانية أصابت القطة فى موضع صلب منها أضعفت حركتها ، ومكنته من التقاط أنفاسـه والثقة بنجاته درجتين إلى الوراء ، إلى الأعلى ، وإذا أضىء النور فجأة (أضاءه أحد الجيران الذى خرج على صوت الجلبة) ، فقد لاحظت لاهث الأنفاس ، أن القطة انسلت سريعاً محنية الرأس تنوء بما يشبه الفضيحة والخسران المؤكد .

الجـار الذى خرج وأضـاء النور والذى يقـيم فى الشـقة المقـابلة وهو مدرس أربعينى متدين ويبحث عبثاً عن عمل إضافى ، لعن القطـط وأيـامها وكـذلك فعلت زوجته هو التى لامته على خروجه . أما هو وبعد أن اقترح حلاً داميـاً غير معـقول وخلافاً لما هم عليـه وانتواه ، فقد لام نفـسه أشد اللوم على خروجه . إذ أن تهدئة قطة مـشردة ليست كإسكات صراخ طفل رضيع . حـتى حـدّث نفـسه أن ما حـدث إنما سببـه سوء الحظ وليس أى سبب آخر : إنه شـيطان العتمة ، وإن ثانية واحـدة من الزمن بل أقل منها هى التى نقلته ونقلتـها من الضوء إلى العتمـة ، من الهدوء إلى الحذر إلى التربص إلى التحفـز إلى الإيذاء . فلو أنها رأته ، رأت يده الممدودة ، ولو أنه رأى عينيها فى رحاب الضوء لا فى دهليز العتمة ، لو . . .

وفوق هذا فـإن قطة الليل التى جرجرت أقـدامها ، نحو جـدار سور البناية أو جدار آخر قريب لتقعى هناك بقية ليلتها أو بقية حياتها . إنها تعيد

إلى ذاكرته المكدودة تلك القطة الشقراء التى كانت تتشممه وتحف به كلما عبر البناية أو خروج منها ، والتى اختفت آثارها منذ وقت لا يتبينه . لكن هذه أقل شقرة وأكثر بدانة يقول لنفسه ، فضلاً عن أن القطط متشابهات ، فمن أين له أن يتأكد وكيف لوجيب قلبه أن يهدأ ؟ .

شمل العائلة

كان له ما أراد ، إذ لم يبتعد عن غـرفة نومه ، وعن باحة البيت التى شهدت جلساته المسائية اليـومية التى دأب عليها دون انقـطاع . ولم يكـن فى جلسته تلك ، باستثناء أيام الشتاء القاسية ، ليتنعم بما لا يملك ولا يسع من هم على مرتبته ومركزه وعمره ، إذ كان يكتفى بشىء من فواكه المواسم يقطفها الأولاد من البسـتان ، وبالأرجيلة التى تظل منتصـبة ، وبركوة من القهـوة . وكان مـحظوراً على الأولاد ، أولاده ، أن يقتـربوا منه ، أو أن يثير أحدهم أية ضوضاء فى دائرته القـريبة . لهم أن يفعلوا ذلك بعيداً عنه ، فى الشارع وإذا ارتكب أحدهـم أو تسبب فى مشكلة ما ، فعلـيه أن يحلّها قبل العودة إلى البيت ، بالحسنى أو بالذراع .

لم يبتـعد عن غرفة النوم وعن جـلسة كل يوم ، سوى نحو عـشرين متـراً ، هى المسافـة التى تفصل الـبيت الحجـرى ، عن شجـرة الخـروب الفـارعة الوارفة المحاذية للسور الخارجى ، حيث تم دفنه هناك .

ربما لو كان لسواه مـثل هذه الرغبة ، ولو عبّر عنها أحـد بمثل ما فعل هو ، بوضوح تام وباشتراط لا رجعة عنها ، لكان له ما كـان لأبى راجـى ، الذى لم يحشـر نفسه فى زمرة موتى بلا عـدد ، وفى مقبرة بائسة لاملامح ولا تَخوم لها ، حتى أن الدواب الشـاردة تسلكها من دون من يعترضها . وقيل ، عن حق ، أن الرجل السبعينى ، الذى نأى بنفسه فى حياته الحافلة عن العـوام : عن الثـرثارين والبلـيديـن والمتطفلين ، عن عـديمى الذكـاء والمحرومين من الدعابة ، وقصر دائرته على الفهيمين والفالحين ، ومتذوقى الحياة قد فعل الشىء ذاته فى مماته ، ويتـطرف أشـد ، إذ لـم يغادر مملكته الأثيـرة ، بل انتـحى ركناً فـيهـا ،والـذى يريـده يأتيـه هناك ، ومن يأته

محظور عليه أن يزعجه ، بثقيل الكلام وطويل الزيارة .

حين تم له ما أراد ، فى أول سنوات الثمانينات ، أنقسم المتدينون ، وجلّ أهل البلدة منهم ، بين مؤيد ومستهجن للفكرة . على أنهم اتفقوا فى النهاية أن لا تحريم قاطعاً . ولم ينتظر الأولاد - أكثر من عشرة بين أبناء وبنات - فتوى من أحد ، فقد نشأوا على طاعة الأب فكيف بوصيته الأخيرة ؟ والأب أبونا والأرض أرضنا ، فما شأن من ليس لهم من عمل سوى الثرثرة والتسبيح ، ما شأنهم بنا ؟

وإذا تفرقوا بعدئذ وقد شبّوا ، تزوج منهم من تزوج ، وغادر البلدة من غادرها من دون رجعة ، فقد نسى الناس ، فى زحمة حوادث الموت ، ما كان من أمر أبى راجى ومرقده تحت شجرة الخروب داخل سور بيته ، حتى تناهى إلى مسامعهم أن أم راجى ، التى تصغر زوجها بعشر سنين ، قد بدأت تفقد ذاكرتها ، ولم تعد تتعرّف إلى ابن بار وآخر عاق ، أو ثالث عائد ، أو ابنة قريبة لا تفارقها . وتأسى الأهل والأقارب والجيران ، على ما أصابها مما يعيا الأطباء عن مداواته . وقد ذهبت عنها فى الأثناء كل ملاحة باقية ووجاهة غابرة ، وكل توقير طالما فرضته على من يخالطنها من نساء الحى .

حينئذ استذكر الناس سبباً ، لا سبب سواه ، للنازلة التى نزلت بها ، حتى أن من تبقى من الأولاد حولها اعترف أنها فى سنواتها الأخيرة ، كانت تحوم لساعات طويلة كل يوم حول شجرة الخروب ، حيث يرقد الرجل الذى لم تجد بعده أى تعويض . وقيل أنها كانت تتناول القهوة هناك . واعترفت صغرى بناتها بأن أمها صارحتها ، قبل أن يصيبها ما أصابها ، بأن الأب لم يختر مكان رقدته الأخيرة قرب البيت ، إلاّ لتعلّقه الشديد بأمها التى أتى بها من قرية بعيدة .

في أخريات أيامها بدا بعض أبنائها نادماً لأنه أخذ بوصية الأب . فلو أنه رقد بعيداً في المقبرة لاحتفظت الأم بمداركها ، ولما أصيبت بالعارض الذي دفع الجميع للإنفضاض عنها ، بمن فيهم من أمضوا حياتهم في السعي للتقرّب منها . وحين ماتت مؤخراً ، بعد طول عذاب ، لم يستهجن أحد أن ترقد بجوار أبي راجي ، حتى أولئك ، الذين رأوا في الأمر إثماً خالصاً . استغرب الناس ، فقط ، هذه المرة أن الإبنة الصغيرة الباقية دون زواج أخذت تولول وتندب قائلة أنه لن يكون لها هي قبر على الأرض ، سوى بجوار أمها وأبيها . . .

أحد الأبناء ، وهو الذي يعقب الإبن البكر (راجي) وهذا تجاوز الخمسين ، بدرت عنه حينئذ ضحكة صغيرة مريرة تلاها بالقول : « بهذا يجتمع مجدداً شمل العائلة . . . بهذا لن يفكّر أحد من إخوتي ببيع البيت أو البستان . لن يضعف أحدهم أمام ارتفاع أسعار الأراضي . فمن يبيع عظام أمه وأبيه » . قال ذلك وهو يعاين بأسى صيرورة بستان الحياة ، مدفناً عائلياً .

تسوية الأمور

لم يكن أحد منهما يعبأ بالمارة . لا البنت ذات الملابس المتهدلة حائلة الألوان والشعر السارح ، ولا الرجل معها وهذا على الأغلب أبوها . لم يكن أحدهما يعبأ بأحد من عابرى الطريق بجوارهما . وإذا حدث وركز أحد نظراته عليهما أو اقترب منهما بأقرب مما يسمح به المرور المعتاد ، فإنهما يدفعان برأسيهما فى فوهة الفتحة وينشغلان فى عملهما . . ويتركان من يتفرج يتخبط فى فضوله .

لطالما صادفتهما وأنا أقترب من مكان عملى فى المؤسسة . لم أرغب يوما برؤيتهما ، منذ حانت منى ذات يوم التفاتة طويلة إليهما فحدجانى كلاهما بنظرات وحشية بلهاء : إننا نقوم بعملنا ونلتقط رزقنا كما تفعل أنت ، ففيم تدخلك فى ما لا يخصك ، بهذا كانت تنطق نظراتهما ،وكادا يخاطبانى به لولا أنى أشحت ببصرى عنهما فى اللحظة الأخيرة ، وأنا أغالب مشاعر الشفقة والازدراء .

لم يكن أحد يتوقف قربهما ، أو يجرؤ على تعطيلهما عما هما فيه . كل منهما يحمل كيس نايلون أسود كبيرا . يضعان فيه ما يستخرجانه ، مما ألقت به أيدى البطر أو الغفلة . يقومان بعملهما بدأب واندفاع ، كأى عامل محترف . أما الرائحة واعتبارات الصحة ، فلا محل لها فى سلوكهما . وكنت بينى ونفسى أتمنى أن يقع بصورة من الصور ما يوقفهما عن هذا العمل ، ما يجعلهما يفكران فى ما يفعلانه ، وأن يتوقفا ولو لدقائق عن الاستغراق الذى يستحوذ عليهما . ولكن من تواتيه الرغبة أو الجرأة فى ذلك .

الرجل أربعيني ، ولا بد أن هيئته المتسخة وملامحه الحانقة ، تضيف بضعة سنوات إلى عمره الحقيقي ، فيما هي في نحو الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة . عمر المراهقة الوردية . ولكنها لا تتسبه لشيء من هذا . فملامحها المتربة المكدودة لا تشي سوى بالترقب والتأهب للعراك .

في ضحى ذلك اليوم ، كنت أقترب من مقر عملي ، كانا منهمكين للمصادفة في عملهما . إذ أن موعدى لا يتطابق دائما مع موعدهما . وإذا بسيارة جمع القمامة تقترب بدورها من الحاوية حيث كانا يتقوسان عليها . للسيارة فوهة خلفية عظيمة ، ينتصب فيها رجلان أو ثلاثة رجال من العاملين بملابسهم البرتقالية ، وممن يرتدون قفازات ولفعات على رؤوسهم وأنوفهم ، وممن نطلق عليهم عمالة وافدة . ما أن وصلت السيارة حتى قفز منها عاملان مدربان وأمسك أحدهما بالفتاة ، وأمسك الثانى بالرجل الذى أرجح إن لم يكن أباها فهو قريبها . وهؤلاء عادة إما من الغجر (النور) أو من الأكراد . نهرهما العاملان بصوت زاعق استعراضى . وقالا كلاما مفادة أنهما سيرفعانهما ويضعانهما داخل السيارة مع الزبالة . لماذا ؟ لأنهما سبق وأن حذراهما مرارا مما يفعلانه ، ولكنهما يكرران ذلك .

كان من الواضح أنه ليس للرجلين من سلطة فعلية عليهما . لكن عملهما .. طبيعة عملهما ، تسمح لهما بهذا التجاوز . وقد فهمت مما جرى من تلاسن ، أن الرجل والبنت يبعثران القمامة خارج الحاوية ، وأن ذلك يعيق عمل عمال جمع القمامة ويضع مسؤولية على كاهلهم . بدا الرجل والبنت خائفين بالفعل ، أما الرجلان العاملان فقد كانا يشعران بالزهو الذى قلما يتيحه له عملهما ، حتى أن العاملين طلبا منهما أن يتركا الكيسين ، وكل منهما كان ممتلئا إلى نصفه تقريبا من حصيلة البحث والجمع فى حاويات لعدة سويعات . لقد حاولا الممانعة ، فى لهجة

متخاذلة وغريبة لا نفهمها ، ولكن العـاملين زعما - عبر سلوكهما - أنهما يفهمانهـما ويدركان كل شيء . أربعتهم من الوافديـن . وقد امتثل الرجل والبنت وقبل أن يديرا ظهريهما وهما يجران أذيال الخيبة كانا مفجوعين بحق ، لما اعتبـراه شماتة مني ، بأكثر من صدمـتهما بما فعل بهمـا العاملان اللذان واصلا عملهما بإتقـان وانتشـاء ، بعد أن سويا الأمر ، وأعاداه إلى نصابه كأحسن ،ما يكون . فـالزبالة مرجعها لسيارة البلدية وهمـا قيمان على كل شيء وقد انتظرا مني تحـية إعجاب لكنهـا لم تبدر مني ، إذ سـارعت فـي الدخول إلى مقر عملي وأنا أغالب الرائحـة المنبعثة ، وأتساءل مع نفسي إن كانت مصادفة خلاف على قمامة في ساعة الصباح إمارة شؤم أم تفاؤل .

صدر للمؤلف

العرى فى صحراء ليلية	بغداد	1972	(قصص)
الجرح الشمالى	بيروت	1980	(قصص)
كوكب تفاح وأملاح	عمان	1987	(قصص)
ضرب بطئ على طبل صغير	القاهرة	1990	(قصص)
غرباء	عمان	1993	(قصص)
أخوة وحيدون	عمان	1996	(نصوص)
القطار	عمان - بيروت	1996	(قصص)

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٣٧٥٤ / ١٩٩٩

تنطلق الكتابة عند محمود الريماوى من ذاكرة الناس .

أعنى : أنها تحاول الوصول إلى سؤالهم الإنسانى ، والذى هو فى كل أحواله يثير دهشتنا . ومحمود الريماوى محمّل بالأسئلة . أسئلة عن الحزن ، وعن الفرح . وعن الناس فيما تشكل لماذا ؟ عنده دائماً ملاذاً وكوناً .

التاريخ والجغرافيا يشكلان فضاءً لقصص هذا الكاتب . التاريخ باعتباره وعاء الماضى أصدق الأزمنة . والجغرافيا حدود المكان فى الوعى القديم ، والذى يقع من القلب على مرمى حجر ؛ فيما كل الطرق مسدودة إليه .

والبشر منكسرون فى القلب ، يبحثون طوال حياتهم ؛ فى الأسواق ، وتحت السقوف الساخنة ، وداخل بيت آيل للسقوط ، وعند شطوط بحيرة الغرقى التى لا عودة منها ، يبحثون عن إجابة مختزنة فى القلب لا تغيب . بحث دؤوب عن الروح الفلسطينية ، وتساؤل مضن عبر المكان والزمان ، عن أشياء تمضى ، ويحاول القاص المبدع الإمساك بها ، ولو من كل عام يوم .

لغة وبناء ومعنى يشكلون إضافة مهمة للقصة العربية .



